المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي

٦٤٨هـ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠م - ١٥١٧م

رسالة لنيل درجة الماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية

إعداد
خالد محسن حسّان الجابري

إشراف
الأستاذ الدكتور/ مريزن سعيد مريزن عسيري

١٤١٣هـ / ١٩٩٣ م

الجـــزء الاول

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة ماجستير بعنوان

الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعـــد :

حظيت الدولة المملوكية في العصر الحديث بدراسات عدة لأحوالها من قبل الكثير من الباحثين ، إلا أن أغلبها اقتصر على بلاد الشام ومصر لكونها مسيطرة عليها بصورة مباشرة ، أما بلاد الحجاز فقد ندرت الدراسات حولها في هذا العصر خاصة في المجال الحضاري رغم مكانتها السامية في قلوب المسلمين عامـــة .

ومن هنا تولدت لدى الباحث الدراسة لهذا المجال لتكون موضوعاً لنيل درجة الماجستير وهي بعنوان « الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي من الفترة ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م » .

أما البحث فقد اشتمل على مقـــدمة ودراسة تحليلية لأهم مصادر البحث ، وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة .

أما المقدمة فتشتمل على أهمية الموضوع والسبب في إختياره ، ثم دراسة تحليلية لأهم المصادر المخطوطة والمطبوعة التي اعتمد عليها البحث ، أما التمهيد فقد اشتمل على مايلي :

أولاً : الحجاز تحديده وأهميته .

ثانياً : الحياة العامة في الحجاز من النواحي السياسيه والإقتصاديه والإجتماعيه .

ثم الفصل الأول الذي تناول مظاهر الإهتمام بالحركة العلمية في الحجاز خلال هذه الفترة والتي تمثلت فيما يلي :

أولاً : اهتمام أمراء الحجاز بالحركة العلمية :

ثانياً : اهتمام بعض سلاطين المماليك وأمراء الدولة الإسلامية بالحركة العلمية في الحجاز .

ثالثاً : دور العلماء والعالمات والأعيان في تنشيط الحركة العلمية والتي اشتملت على المجاورين ، الأسر العلمية ، دور العلماء في المدن الحجازية ، دور المرأة في الحركة العلمية بالحجاز .

رابعاً : العلاقات العلمية بين الحجاز والأطراف الأخرى « الرحلات العلمية »

خامساً : الوراقة والوراقون ودورهم في تنشيط الحركة العلمية .

سادساً : الكتب والمكتبات .

بينما الفصل الثاني تناول مراكز التعليم في الحجاز والتي اشتملت على مايلي :

أولاً : الكتاتيب . ثانياً : المساجد. ثالثاً : دور المدارس . رابعاً : دور الأربطة

ثم الفصل الثالث الذي تناول العلماء وإنتاجهم العلمي حيث إشتمل على الآتي :

أولاً : الدراسات الشرعية . ثانياً : الدراسات الأدبية واللغوية .

ثالثاً : الدراسات الإجتماعية . رابعاً : الدراسات العقلية والتطبيقية .

أما الخاتمة : فقد تناولت الدراسة أهم النتائج التي توصل إليها الباحث ومن أهمها :

١ - ظهور الأسر العلمية المكيه والمدنيه التي توارثت الوظائف الدينية والعلمية خلال فترة البحث .

٢ - تطور الدراسات التاريخية في تلك الفترة ومكانتها عند المؤرخين .

٣ - أظهرت الدراسة أن العصر المملوكي لم يكن عصر ظلام وضآله علمية كما يتوهم الكثير من المؤرخين.

٤ - أوضحت الدراسة جانباً معيناً لم يتطرق إليه الباحثون ، وهو المدن الحجازية الأخرى ، وقراها مثل الطائف وجده وينبع وقرى مكة المكرمة .

فأرجو من الله تعالى التوفيق والقبول إنه ولي ذلك وهو القادر عليه والحمد لله رب العالمين .

عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية	المشرف على الرسالة	الباحث
د. محمد بن صامل السلمي	د / مريزن سعيد عسيري	خالد محسن حسان الجابري

١٢ / ٧ / ١٤١٥هـ



مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعى بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين. أما بعد،

فمعروف أن منطقة الحرمين الشريفين كانت منذ فجر الإسلام ولاتزال منطقة جذب للمسلمين تهوي إليها قلوبهم للحج والعمرة وزيارة مسجد الرسول الكريم ﷺ، وكان هذا تحقيقاً لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام حينما دعى ربه قائلاً: ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم * ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[1]. وجاءت استجابة الحق تبارك وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام، فما لبثت هذه البقاع الطاهرة إلا يسيراً حتى امتلأت أرجاؤها بالمسلمين الذين باتوا يأتون إليها من كل حدب وصوب.

تلك القدسية الدينية كانت سبباً مباشراً في ازدهار الحركة العلمية، فهذا موسم الحج مكان للقاء العلماء من كافة أقطار العالم الإسلامي يتدارسون فيه جوانب المعرفة وما يعرض من أمور الواقع ويأخذ بعضهم عن البعض الحديث والتفسير والفقه وشتى أنواع المعرفة، وأهم من ذلك كله هجرة الكثير من المسلمين من شتى بقاع الأرض إلى المدينتين المقدستين نتيجة ظروف اقتصادية أو دينية أو سياسية، فهؤلاء المهاجرين كانوا أصحاب ثقافات وعلوم في بلدانهم وأصبحوا بعد ذلك جزءاً من مجتمع الحجاز، فكان لهم باع طويل في تنشيط الحركة العلمية فيه، ونتيجة لذلك نشأت المدارس وكثر طلاب العلم والمعرفة.

وقد قدم سلاطين المماليك وغيرهم من سلاطين وأمراء البلدان الأخرى المساعدات والصدقات لهؤلاء العلماء والمجاورين ورواد الأربطة والزوايا والمدرسين، والقضاة والخطباء، وكان ذلك سبباً مهماً من أسباب ازدهار الحركة العلمية.

---

(١) سورة إبراهيم، آية ٣٥، آية ٣٦، آية ٣٧.

واستتبع وجود العلماء وجود المدارس وتطورها، وكان كثير من تلاميذ تلك المدارس شباناً قادمين في موسم الحج، وقلما خلا عام من أعوام القرون الثلاثة، السابع، والثامن، والتاسع من الهجرة من عالم شهير في الحرمين الشريفين يأخذ عنه كل راغب في العلم والمعرفة ويحذون حذوه في الدراسة والإطلاع.

أما أسباب اختياري لهذا الموضوع:

فمنذ السنة المنهجية وأنا أفكر في دراسة موضوع في الحضارة والنظم الإسلامية، وبعد الإطلاع والدراسة توصلت إلى أن الجانب العلمي في الحجاز خلال العصر المملوكي لم ينل الدراسة الكافية، فعقدت العزم واستخرت الله في ذلك، وكان هناك عدة عوامل دفعتني للكتابة في هذا الموضوع منها:

١ ـ مكانة الحجاز الدينية، فهي تحتل مكانة سامية في قلوب المسلمين جميعاً لما تضمه أرضه الطيبة من مقدسات إسلامية.

٢ ـ لايجد الباحث بحثاً تاريخياً مفصلاً عن الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي، وإنما نجد مؤلفات على كثرتها يعتورها النقص ويعوزها العمق والاستقصاء.

٣ ـ كما شجعني على اختيار هذا الموضوع، توفر المصادر الأصلية لهذا البحث ولعلماء عاصروا تلك الفترة، أمثال الفاسي، وبنو فهد، وابن حجر، والسخاوي.

٤ ـ أن كل موضوع محدد غير متشعب يستطيع الباحث أن يتمكن من دراسته وحصر موضوعاته حصراً يقرب من الإجادة والشمول والإحاطة وإيفاء الموضوع حقه، سيما وأن الأبحاث في الحضارة والنظم الإسلامية خاصة أحوج ما تكون إلى الحصر والتخصص.

٥ ـ نشأة الحركة العلمية في هذا العصر، ونقصد من هذا ازدهار علوم ومعارف متنوعة، كالحديث، والفقه، والتفسير، واللغة، والأدب، والتاريخ إلى جانب الكثير من العلوم، وهذا ما ستكشف عنه الدراسة إن شاء الله.

٦ ـ رغبتي الكامنة لإثبات أن العصر المملوكي لم يكن عصر ظلام أو ضآلة علمية، كما يتوهم البعض، بل هو عصر زاخر بأمهات الكتب ويحلو لبعض المؤرخين

المعاصرين أن يسميه عصر الموسوعات العلمية لما قدمه العصر المملوكي لنا من تراث علمي في مختلف التخصصات، على أن هذا العمل الجليل الذي قام به علماء مصر ليس خدمة لتراثها فحسب، بل للعالم الإسلامي كله.

٧ ـ حظيت الدولة ا لمملوكية في العصر الحديث بدراسات عدة لأحوالها من قبل الكثير من الباحثين، وألفت كتب عديدة في بيان مظاهر حياتها التاريخية والسياسية، والاجتماعية، والعلمية، إلا أن جُلّ هذه الأبحاث لم تتعد حدود بلاد الشام ومصر، حيث كانت لتلك الدولة آثار بارزة وأعمال جليلة بها، وكانت لهم سلطة مباشرة عليها.

أما بالنسبة لبلاد الحجاز عامة، ومكة والمدينة على وجه الخصوص، فقد ندرت الدراسات حولها في هذا العصر، وقلت العناية بالتعريف بأحوالها وأوضاعها في عصر المماليك رغم مكانتها التي لاتساميها مكانة في قلوب جميع المسلمين، وبقيت هذه المنطقة مجهولة من كافة نواحيها لدى كثير من المثقفين، ومن أجل ذلك كان لزاماً على الباحثين وطلاب العلم أن يوجهوا عنايتهم لمعرفة النشاط العلمي وغير العلمي الذي مرت بهما أحب البلدان إلى قلوبهم.

ومن بين الصعوبات التي واجهت هذا البحث، فقدان كثير من مصنفات أهل مكة والمدينة وضياعها، فهناك كتب تاريخية فقدت منذ زمن طويل، لو وجدت لذللت الكثير من الصعاب، مثل مؤلفات ابن فهد في الأسر المكية.

كما أن الكثرة الهائلة لأسماء العلماء والمفكرين في هذا العصر، والمثبتة في كثير من مصادر التراجم، ومشاركاتهم في كثير من العلوم بحكم موسوعية أغلبهم، فكان من الصعوبة بمكان تبيان نشاط كل واحد منهم في الفنون المعرفية التي شاركوا فيها، وذلك استنفذ من الباحث جهداً كبيراً.

وقد اشتمل هذا البحث على مقدمة ودراسة تحليلية لأهم مصادر البحث وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

أما المقدمة فتشتمل على أهمية الموضوع والسبب الباعث على اختياره، ثم دراسة تحليلية لأهم المصادر المخطوطة والمطبوعة التي اعتمد عليها البحث، ثم التمهيد ويشتمل على :

أولاً: الحجاز ـ تحديده وأهميته:

تناولت فيه موقع الحجاز وحدوده وأهميته منذ القدم بشكل عام، ثم أهميته بشكل خاص بالنسبة للمماليك، حيث أعطيت دراسة وافية لجميع المدن المهمة في الحجاز وأهميتها الدينية والسياسية والاقتصادية.

ثانياً: الحياة العامة في الحجاز من النواحي:

أ ـ السياسية: حيث تعرضت في هذه المبحث للحالة السياسية في الحجاز، والصراع القائم بين الأشراف، ومنافسة آل رسول لسلاطين المماليك، وما وقع في تلك الفترة من نزاعات في جميع مدن الحجاز.

ب ـ الاجتماعية: وتحدثت فيه عن المجتمع الحجازي في تلك الفترة، وقدمت وصفاً عاماً للحياة الإجتماعية في كافة مدن الحجاز، وأهم المنشآت التي قام بتعميرها سلاطين المماليك وغيرهم من أسبلة وعيون وآبار.

جـ ـ الإقتصادية: وبيّنت فيه موارد مكة المكرمة والمدينة المنورة وعلاقتهما التجارية الداخلية والخارجية، والأسواق المنتظمة في الحرمين الشريفين، والمعاملات المالية لأهل الحجاز، كما تعرضت فيه لأوقاف السلاطين والأمراء وغيرهم من المحسنين، وحالات الرخاء والشدة، والمجاعات التي أصابت الحرمين الشريفين في فترة البحث، كما تعرضت كذلك للحياة الإقتصادية في مدن الحجاز الأخرى، مثل: جدة، الطائف، وينبع.

وفي الفصل الأول تناولت «مظاهر الإهتمام بالحركة العلمية في الحجاز خلال هذه الفترة» ويشتمل على:

أولاً: اهتمام أمراء الحجاز بالحركة العلمية:

وبينت فيه اهتمام أمراء مكة بشكل خاص بالحركة العلمية في الحجاز ومشاركتهم فيها، وإنشاءاتهم العلمية، ورحلاتهم لطلب العلم، وبعض العلماء الكبار الذين تلقوا عنهم العلم، وثناء العلماء عليهم، ومشاركة الأمراء للعلماء في أفراحهم واتراحهم، كما أشرنا إلى بعض الأمراء الذين كانت لهم مواقف سلبية وغير مشرفة مع العلماء.

ثانياً: اهتمام بعض سلاطين المماليك وأمراء الدولة الإسلامية بالحركة العلمية في الحجاز:

وتحدثت فيه عن مشاركة سلاطين المماليك في العلم وتشجيعهم للعلماء، وانشاءاتهم التعليمية في الحجاز، ومشاركة أمراء المماليك في هذه الإنشاءات وتفوقهم فيها، كما تعرضت كذلك لسلاطين بني رسول ومؤلفاتهم ومشاركاتهم العلمية، ومنافستهم للمماليك في إنشاء كثير من المدارس في مكة، واهتمام بعض بنو طاهر بالحركة العلمية في الحجاز، إضافة إلى إنشاءات السلاطين والأمراء الهنود في الحرمين الشريفين المتمثلة في المدارس والأربطة في مكة والمدينة.

ثالثاً: دور العلماء والعالمات والأعيان و العامة في تنشيط الحركة العلمية :

ويشتمل على:

أ - **المجاورون:** وأوردت فيه بعض النماذج لهؤلاء العلماء المجاورين، ومشاركتهم في كافة فنون المعرفة، وتصنيفهم لكثير من الكتب في ظلال الحرمين الشريفين، ومشاركة بعض أهل الحرف في الحركة العلمية في الحجاز، ودور بعض المجاورين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقدير العلماء بعضهم للبعض في حل بعض المسائل الفقهية، كما تعرضت فيه لبعض إنشاءات التجار والأعيان في الحرمين الشريفين.

ب-الأسر العلمية: وتناولت فيها الأسر المكية أولاً، ثم الأسر المدنية، حيث أشرت إلى أصول هذه الأسر وأنسابهم ودورهم في الحركة العلمية.

جـ - دور العلماء في المدن الحجازية: وذكرت في هذا المبحث: دور العلماء في مدن الحجاز مثل: جدة، الطائف، بلاد بجيلة، قرى مكة المكرمة، وينبع، وما كان في هذه المدن من حركة علمية.

د-دور المرأة ومكانتها في الحركة العلمية بالحجاز: في هذا المبحث القصير، أوردت نماذج من نساء الحرمين، ومشاركتهن في العلم وإنشاءاتهن للأربطة والكتاتيب، وبعض من شاركت منهن في التأليف، والإجازات التي حصلن عليها من كبار العلماء في العالم الإسلامي.

رابعاً: العلاقات العلمية بين الحجاز والأطراف الأخرى «الرحلات العلمية»:

وتقصيت في هذا المبحث الرحلات التي قام بها علماء الحجاز، وأهمية الرحلة في طلب العلم، ورحلات العلماء إلى الحرمين الشريفين، ودور بعض العلماء في البلدان البعيدة مثل بلاد التكرور والسودان وغيرهما، ومشاركة بعض العلماء في التدريس في مدارس مصر واليمن، ورحلات البعض إلى بلاد الهند وتكريم السلاطين لهم.

خامساً: الوراقة والوراقون ودورهم في تنشيط الحركة العلمية:

وقد أفردت هذا المبحث لدراسة هذه الحرفة الرائجة ومن خدم فيها من المتكسبين بالنسخ، والذين كانوا ينسخون لأنفسهم ولغيرهم من العلماء خدمة لهم وطلباً للرزق وأماكن النساخة في الحرمين، كما تعرضت لتجارة الكتب وسوقها الرائجة في ذلك العصر.

سادساً: الكتب والمكتبات:

وتحدثت فيه عن أهمية الكتب والمكتبات الخاصة بالحرمين الشريفين، والإعارة ووقف الكتب، وخزائن الكتب في المساجد والأربطة والمدارس.

أما الفصل الثاني فكان الحديث فيه عن مراكز التعليم في الحجاز ويشتمل على:

أولاً: الكتاتيب:

وقمت بتقسيمها إلى كتاتيب خاصة، وكتاتيب عامة، و تعرضت إلى دور المؤدبين في الحرمين الشريفين، وما كان يتلقاه المكتبيين والتلامذة من فكر وعلوم بالحرمين الشريفين.

ثانياً: المساجد:

تحدثت فيه عن الحرمين الشريفين باعتبارهما مركز الثقل في الحركة العلمية، ولعدم وجود مساجد أخرى غير المسجد الحرام والمسجد النبوي كانت تقام فيها حلقات العلم، حيث قمت بتقسيم النشاط العلمي بهما إلى قسمين:

الأول: حلقات العلم في الحرمين الشريفين، وتشمل هذه الحلقات علوم الشريعة واللغة والعلوم العقلية.

الثاني: الدروس المقررة المخصصة التي قررها السلاطين والأمراء وغيرهم في الحرمين الشريفين.

ثالثاً: دور المدارس في الحرمين الشريفين:

وقد تطرقت في هذا المبحث لكثير من مدارس مكة والمدينة، موضحاً ماكان لها من أثر في تنشيط الحركة العلمية ، ومبيناً الشروط والمسائل المالية والإدارية والتنظيمية لهذه المدارس، وكيف كانت تتم فيها العملية التعليمية، ومناهج الدراسة، والمفردات العلمية، والأساتذة، والتلامذة.

رابعاً: دور الأربطة:

وذكرت في هذا المبحث كثيراً من الأربطة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وما تقدمه هذه الأربطة من خدمات ومعونات جليلة لساكنيها ، والدور الذي قامت به في تنشيط الحركة العلمية.

أما الفصل الثالث: العلماء والإنتاج العلمي: فإنه يشتمل على:

أولاً: الدراسات الشرعية:

ثانياً: الدراسات الأدبية واللغوية:

ثالثاً: الدراسات الإجتماعية:

رابعاً: الدراسات العقلية و التطبيقية :

وهذا الفصل يعتبر من أهم فصول هذا البحث، إذ أنه يمثل المحصلة النهائية والصورة الواقعية لنشاط الحركة العلمية في الحجاز، فقد تم فيه استعراض ثمرة الإنتاج العلمي المتمثل في بروز ا لكثير من علماء الفترة في العالم الإسلامي، لما قدموه من فكر جليل ودراسات رائعة لاسيما في العلوم الشرعية، وعلوم العربية والأدب، والتاريخ والتراجم، متقصياً في ذلك ذكر مصنفاتهم ورسائلهم العلمية، وما كان لها من أثر بالغ في تنشيط الحركة العلمية في الحجاز خاصة والعالم الإسلامي عامة.

دراسة تحليلية لأهم مصادر البحث

لاشك أن لكل عمل علمي طبيعته، التي تفرضها وجهته الدراسية وميدان العمل، وبالتالي فإن لكل موضوع مصادر ومنابع معيّنة ومحددة تمليها طبيعة ذلك الموضوع، وموضوع دراسة الحركة العلمية في الدولة الإسلامية عامة تفرض على الباحث أن يلتقي بالعديد من المصادر المتخصصة في التاريخ والسياسة والإقتصاد والإجتماع والفكر بكافة فروعها المعرفية.

ومن فضل الله تعالى أن الفترة التي أتت على دراسة الحركة العلمية في الحجاز كانت فترة نماء وازدهار للحركة العلمية لاسيما في جانبها التاريخي، فقد أبرزت الكثير من المؤرخين الأفاضل، الذين تركوا لنا صورة رائعة لمظاهر الحركة الفكرية والنشاط العلمي في الحجاز إبان العصر المملوكي، مابين تراجم للعلماء والمفكرين وماخلفوه من علم وفكر، ودراسات سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية، سلطت أضواء جيدة على مدى تفاعل الحركة العلمية في الحجاز بكافة جوانب الحياة المختلفة.

والمؤرخون - سجل التراث - في هذا العصر كانت أكثر مؤلفاتهم حولية، تبدأ بسنة معيّنة وتنتهي عادة بوفاة المؤلف، وهذا مانجده في الموسوعات التاريخية في العصر المملوكي، فقد ظهرت مؤلفات عظيمة كانت تختص دائماً بمصر ودورها السياسي والريادي في العالم العربي والإسلامي في ذلك الوقت، ولكن هؤلاء المؤرخين لم ينسوا في خضم الأحداث المعاصرة لتلك الفترة أن يشيروا ويتطرقوا لكافة الجوانب السياسية والإقتصادية والإجتماعية والعلمية لبلاد الحجاز، وذلك لأن كثيراً من هؤلاء العلماء المؤرخين كانوا من ضمن الذين قاموا بزيارة الحرمين الشريفين، أو جاوروا بهما.

هذا بالإضافة إلى كتب التاريخ العام أو المحلي للحرمين الشريفين، وكتب التراجم وطبقات الرجال والوفيات في مجالاتها وتخصصاتها المختلفة لعلماء الشريعة، ورجال اللغة والأدب، أو تراجم المؤرخين والجغرافيين، ورجال التربية والعلوم العقلية وغيرها من العلوم.

كما أن تعدد المواضيع المختلفة التي تطرقت لها هذه الدراسة أدت إلى تنوع مصادر البحث وتعددها وهيأ إمكانية الإستفادة منها جميعاً، مما يجعل من الصعوبة بمكان أمر تناولها جميعاً بالتفصيل، إنما نحاول هنا الإشارة إلى أهمها والتي تعتبر الركائز الأساسية التي اعتمد عليها البحث، لاسيما تلك المصادر المعاصرة لفترة البحث، والتي أفادت في دراسة الحياة العلمية في الحجاز في العصر المملوكي.

بالإضافة إلى بعض المصادر التي لاغنى للباحث عنها، حيث إنها زودت البحث بمعلومات نادرة أفادت في جوانب معيّنة منه، وكانت تمثل نماذج للإنتاج العلمي في الكتب والمصنفات المتخصصة لعلماء العصر في ميادين العلوم المختلفة.

أولاً: المخطوطات:

يعد كتاب «الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» للنجم عمر بن فهد (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)*، أحد المخطوطات المهمة التي استفدت منها في فصول البحث، لما حوته من معلومات عن الحياة الثقافية والحركة العلمية في مكة المكرمة، وتكمن أهميته في أنه مكمل لكتاب «العقد الثمين» للفاسي، وقد أورد فيه كثيراً من الكتب التي ألفها العلماء في ذلك العصر، كما تناول فيه دور المرأة العلمي في مكة المكرمة، وتطرق لكثير من المدارس والأربطة التي كان لها دور في الحركة العلمية بمكة.

أما كتاب «نصيحة المشاور وتسلية المجاور» لعبدالله بن أبي عبدالله بن فرحون (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، فيعتبر أحد أهم المصادر المخطوطة التي أفادت البحث، وقدمت لنا مادة علمية عن العلماء في الحرمين الشريفين، خاصة المدينة المنورة، وربما يعود السبب في ذلك إلى أن مؤلفها من أبناء أسرة ابن فرحون الشهيرة بالمدينة المنورة، وقد تحدث فيه عن

* إن جميع المصادر التي سنوردها هنا تعتبر من أهم كتب الإنتاج العلمي لفترة البحث، ولقد فصلنا هناك بالكامل عن كل واحد منها، ومما تجدر الإشارة إليه أن الغالبية العظمى من الباحثين لم يتنبهوا إلى أهمية عدد من المخطوطات التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة ومالها من دور بالغ في تكوين هيكل البحث سواء أكان ذلك من الناحية العلمية أو ما يتصل بها، أو من الناحية التاريخية أو السياسية أو الإقتصادية بالنسبة للحجاز في هذه الفترة، بل إن بعض المخطوطات على أهميتها القصوى، فإنني لم أجد أحد منهم تنبه إليها .

المكانة التي تمتع بها العلماء في عصره، كما أشار كذلك إلى كثير من مؤلفاتهم ومشاركاتهم في حلقات العلم بالمسجد النبوي.

وكتاب «بلوغ القرى في ذيل اتحاف الورى بأخبار أم القرى» لعزالدين بن عمر بن فهد (٩٢٢هـ/١٥١٦م)، وهو كتاب مخطوط ذيل به على كتاب والده النجم عمر بن فهد، ورتب الكتاب على حوادث السنين، مع إطالة في ذكر بعض الحوادث، وهذا الكتاب مهم جداً، وذلك لأن العز بن فهد كان يعتمد على مشاهداته للأحداث وتدوينه للمعلومات عن مكة، وما طرأ عليها من إنشاءات، واستفدت منه في معرفة المدارس والأربطة التي استمرت إلى زمنه، كما وضح بعض الأحداث السياسية والإقتصادية لمدينة جدة وما وقع فيها من حروب.

كذلك أستفاد البحث من كتاب «الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة» ولايزال مخطوطاً لتقي الدين الفاسي (٨٣٢هـ/١٤٢٨م)، الذي وثقت منه كثيراً من المعلومات الخاصة بإنشاءات المدارس والأربطة في الحرمين الشريفين.

كما استفدت كثيراً من مخطوط «الغرف العلية في تراجم متأخري الحنفية» لمحمد بن علي بن أحمد بن طولون الدمشقي (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، والذي ضم كثيراً من أتباع المذهب الحنفي، من أمراء وعلماء وأعيان وغيرهم،

وهناك أيضاً كتاب «معجم ابن فهد» للنجم عمر بن فهد (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م)، أحد المخطوطات المهمة التي ترجمت لعلماء الحرمين الشريفين وبعض البلدان الأخرى، لأنها حوت شيوخ النجم بن فهد ومؤلفاتهم العلمية في الحرمين الشريفين.

بالإضافة إلى كتاب «تاريخ المحمدين» لمؤلف مجهول، ربما يعود إلى أحد علماء القرن التاسع الهجري، وذلك لأنه أورد أسماء كثير من العلماء ومؤلفاتهم في ذلك القرن، والجدير بالذكر أن هذه المصادر الثلاثة الأخيرة لم يستفد منها أحد من الباحثين على الرغم من أهميتها البالغة كمصادر لتلك الفترة التي لاغنى للباحثين عنها.

أما الأول فقد بيّنت مدى أهميته، وأما الثاني فإن كثيراً من الباحثين لم يعيروه ذلك الإهتمام اعتقاداً منهم بأنه المعجم الذي حققه الأستاذ محمد الزاهي، وهو خلاف ذلك، وأما الثالث فلأن مؤلفه مجهول فقد تركه الكثير من الباحثين.

وهناك أيضاً كتاب «تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام» لمحمد بن سالم الصباغ (ت١٣٢١هـ/١٩٠٣م)، وعلى الرغم من تأخر هذا المخطوط من الناحية الزمنية، إلا أن البحث إستقى منه معلومات تخص المدارس والأربطة، وإن كان معظمها منقول عن الفاسي، ولكنه بيّن بعض هذه الآثار التي بقيت بعد الفاسي بمدة قصيرة.

- المصادر المطبوعة:

ثانياً: المصادر المكية والمدنية:

ومنها كتاب «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» لمؤلفه تقي الدين الفاسي (ت٨٣٢هـ/١٤٢٨م)، ويقع في ثمانية أجزاء، سار فيه المؤلف على الترتيب الهجائي للأسماء، عدا من إسمه محمد أو أحمد، فإنهما تصدرا أجزاءه ويعد هذا الكتاب موسوعة كبرى لتاريخ مكة وعلمائها ومن سكنها أو جاور بها، ولقد خدمني هذا الكتاب خدمة كبيرة، فقد استقيت منه جانباً كبيراً من المعلومات المتعلقة بموضوع بحثي، فكان مصدري الأساسي لاسيما فيما يتعلق بالنواحي السياسية والحياة العلمية والإجتماعية، وأحوال المجاورين بمكة، كما أنه أفرد جزءاً خاصاً لنساء مكة، استفدت منه كثيراً في معرفة دور المرأة العلمي في الحرمين الشريفين، كما أنه أورد كثيراً من التراجم في بحوث قصيرة جرت الإستفادة منها، خاصة أثناء ذكره لأمراء مكة وسلاطين بني رسول وإنشاءاتهم في الحرمين الشريفين، لذا فإن هذا الكتاب يعد من أهم المصادر التي أفادت البحث كثيراً، فالفاسي أورد كثيراً من أسماء طبقات المجتمع في عصور مختلفة انتهت بعصره الذي عاش فيه.

أما كتاب «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» وهو للتقي الفاسي أيضاً، ويقع في جزأين فقد استفدت منه كثيراً في توضيح المعلومات التي لم يوردها في كتابه «العقد الثمين» خاصة المؤسسات التعليمية من مدارس وأربطة وغيرها، إضافة إلى ذكره للكوارث الطبيعية والأحداث المختلفة التي تعرضت لها مكة، كالأمطار والسيول والأوبئة، والإنشاءات والعمائر التي قام بها السلاطين والأمراء وغيرهم في مكة المكرمة، وجرت الإفادة منه في الناحية الإقتصادية والإجتماعية من التمهيد لهذا البحث، وكذلك المدارس والأربطة في الفصل الثاني من هذا البحث.

وللفاسي أيضاً «ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد»، ويتضمن أسماء المحمدين من رواة السنن أو المسانيد والمعاجم وبعض المشيخات، والكتب الشرعية المؤلفة التي ألفها العلماء في ذلك العصر، وتناول كذلك في تراجم العلماء ماكان يقرأ في الحرم المكي الشريف من كتب الحديث والأجزاء.

ويعد كتاب «إتحاف الورى بأخبار أم القرى» للنجم عمر بن فهد (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) ويقع في أربعة أجزاء موسوعة تاريخية للأحداث التي مرت بها مكة المكرمة منذ عهد الرسول ﷺ حتى عصر المؤلف، مرتبة ترتيباً زمنياً، وقد أورد فيه كثيراً من المعلومات مع التركيز على أخبار الحج، ومن قدم مكة حاجاً من الأعيان والعلماء وأخبار أمراء الحج، والنفقات التي أنفقت في مكة، واستفدت منه في استيفاء أخبار أهل مكة، وأحوالهم الإجتماعية، والكوارث الطبيعية والمبادلات التجارية والمراكب، وأخبار الأسعار، وأخبار جدة وما حصل فيها من تعيين لنوابها والحياة الإقتصادية بها، إضافة إلى إشارات بسيطة عن تواريخ إنشاءات المدارس والأربطة بمكة، وعن خزائن الكتب بالمسجد الحرام.

وله أيضاً كتاب «معجم الشيوخ» الذي رتبه على حروف المعجم، وقد أفادني هذا الكتاب بشكل كبير فيما يتعلق بالعلوم التي راجت في مكة وحركة التأليف فيها، وتكمن أهميته في التراجم الوافية لبعض علماء المدن الإسلامية، كما يعتبر سجلاً مهماً للمدارس ونظامها الداخلي في عهده ، وأورد لنا كثيراً من المؤلفات والكتب التي ألفها علماء الحجاز وقاموا بتدريسها في الحرمين الشريفين.

أما كتاب «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» تصنيف محمد بن عبدالرحمن السخاوي (٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، فيعد أحد المصادر المهمة لتاريخ المدينة المنورة، وقد قصر السخاوي تراجمه في هذا الكتاب على أهل المدينة المنورة فقط، ومن سكنها من الغرباء ولو لسنة واحدة، بشرط أن يكون قد درّس فيها، أو حدث أو أفتى، سالكاً في ذلك طريقة سابقه الفاسي في كتابه «العقد الثمين» وهدف من وراء ذلك سد الفراغ الموجود في تاريخ هذه المدينة، إذ كان كما يقول لم يجد مؤلفاً يشفي الغليل في تاريخ هذه المدينة.

ولما كان السخاوي نفسه ممن جاور فترات عديدة، فقد التقى خلالها بالعديد من العلماء الأفاضل، الأمر الذي مكنه من تقديم صورة حقيقية عن الحياة العلمية في المدينة المنورة ومعلومات موثقة عن علمائها، وتكمن أهمية هذا الكتاب، في أنه ألف في المدينة المنورة أثناء مجاورة صاحبه، وقد جرت الإفادة منه بشكل رئيسي في جميع فصول البحث الرئيسية، حيث تعرض لإنشاءات السلاطين والأمراء في المدينة المنورة .. كما تعرض لأول مرة من خلال كتابه للأسر المشهورة في المدينة المنورة، ودور العلماء في المسجد النبوي، بالإضافة إلى الإنتاج العلمي لكافة فروعه في تلك المدينة المقدسة.

وكتاب «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» لمؤلفه علي بن أحمد السمهودي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، مؤرخ المدينة المنورة المشهور وأحد العلماء المدرسين بها، وقد أفاد هذا الكتاب في المبحث الخاص بالمدارس التي أنشأها السلطان قايتباي في الحرمين الشريفين، وخزائن الكتب في المسجد النبوي.

وهناك أيضاً كتاب «التعريف بما آنست من معالم دار الهجرة» لمحمد بن أحمد المطري (٧٤١هـ/١٣٤٠م)، وكتاب «تحقيق ا لنصرة بتلخيص معالم دار الهجرة» لزين الدين أبي بكر بن حسين المراغي (ت٨١٦هـ/١٤١٣م)، وكلاهما أشارا إلى المدارس التي أنشئت في المدينة المنورة، والتي لم يتعرض لها مؤرخوا ذلك العصر.

وكتاب «المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة» لعبدالله مرداد أبوالخير (ت١٣٤٣هـ/١٩٢٤م)، وإن كان هذا المصدر من المصادر المتأخرة زمنياً، إلا أنه ضمّن معلومات جيدة عن بعض الأسر المكية وإنتاجهم العلمي.

ثالثاً: المصادر المملوكية:

ومنها كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، فقد أعطانا وصفاً تفصيلياً للحياة السياسية والأعمال والإنشاءات التي قام بها سلاطين المماليك في الحجاز، وانتفعت به في استقاء المعلومات التي تخص العلاقات السياسية بين السلاطين وأمراء الحجاز، كما أوضح أهمية مدينة جدة الإقتصادية بالنسبة للمماليك، وترجم فيه لسلاطين المماليك تراجم وافية، ويعتبر المقريزي شاهد عيان لبعض فترات تاريخ الدولة المملوكية، ولذلك فمعلوماته تتسم بالأهمية.

أما «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لجمال الدين أبوالمحاسن يوسف بن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، فهو كتاب ضخم، يعد من أهم المصادر الموسوعية التاريخية، فهو دائرة معارف كبرى مرتبة على السنين، وذلك ابتداءً من فتح عمرو بن العاص لمصر سنة ٢٠هـ/٦٤٠م، حتى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، تحدث فيه المؤلف عمن ولي مصر من الملوك والسلاطين والنواب مع ذكر ملوك الأطراف والأمراء، ومنهم أمراء الحجاز، وقد استفدت منه عما وقع من الحوادث المهمة، ومن توفي من علماء الحجاز والمجاورين، كما أنه كان العمدة في توثيق الكثير من المعلومات الخاصة بالحرمين الشريفين.

وله كذلك كتاب «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي»، استقيت منه معلومات مهمة عن بعض علماء الأسر المكية والمدنية ومؤلفاتهم، إضافة إلى انشاءات أمراء المماليك، وسلاطين الهند في الحرمين الشريفين.

وكتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» لأحمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، وهو يمثل دائرة معارف عربية في هذا العصر من حيث المضمون والمنهج، وقد أفاد هذا البحث في تعريف بعض الإصطلاحات المملوكية التي سادت في هذا العصر، كما بيّن لنا المكاتبات والمراسلات بين أمراء الحجاز وسلاطين المماليك، إضافة إلى إعطائنا وصفاً للحجاز وأهميته الإقتصادية والإجتماعية.

وهناك أيضاً كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن إياس (ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م) وهو من معاصري السلطان قايتباي والسلطان قانصوه الغوري، وقد شاهد أحداث دولتهم، وكتب عنهم وخاصة فيما يتعلق بأحداث جدة والمنشآت التعليمية في الحرمين الشريفين.

وكتاب «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك» لغرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت٨٧٣هـ/١٤٦٨)، الذي اشتمل على معلومات قيّمة عن الحركة التجارية في مدينتي جدة وينبع.

رابعاً: المصادر اليمنية:

يعتبر كتاب «العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية» تصنيف علي ابن حسن

الخزرجي (ت٨١٢هـ/١٤٠٩م)، من المصادر المهمة التي استقيت منها بعض المعلومات التي تخص سلاطين بني رسول وما كانوا يتمتعون به من ثقافة وعلم، وماكان لهم من أيادي على المنشآت العلمية بمكة، وكذلك العلاقات العلمية الوثيقة التي كانت بين علماء الحجاز وبين هؤلاء السلاطين.

وكتاب «الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد» لعبدالرحمن بن علي بن محمد بن عمر بن الديبع الشيباني (ت٩٤٤هـ/١٥٣٧م)، سواء بتحقيق يوسف شلحد أو بتحقيق محمد عيسى صالحية، وهو كتاب أفادني في بعض أخبار الدولتين الرسولية والطاهرية وعلاقتهما العلمية بالحجاز.

وهناك أيضاً كتاب «تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر» لمؤلفه محي الدين عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله العيدروسي (١٠٣٨هـ/١٦٢٨م) المؤرخ اليمني المشهور، وعلى الرغم من تأريخه لعلماء اليمن، إلا أنه تحدث فيه عن علماء الحجاز وإنشاءات السلاطين عامة في الحرمين الشريفين.

خامساً: كتب التراجم:

ويتصدرها كتاب «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» لمحمد بن عبدالرحمن السخاوي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، ويقع في إثنى عشر جزءاً، ويشمل هذا الكتاب أهل المائة جميعاً أياً كانوا سواء كانوا من المسلمين أم من غيرهم، وهذا يدلنا على أهمية المنحنى الإنساني الذي ظهر عند العرب في هذه المصنفات المئوية العامة دون أن يفرقوا بين أحد من الناس بسبب إختلاف العقيدة أو غير ذلك.

وقد أرخ في كتابه هذا لجميع فئات المجتمع، كما أنه ترجم لكثير من معاصريه، وكانت تراجمهم أكثر دقة ووضوحاً من التراجم التي أوردها في كتابه «التحفة اللطيفة»، خاصة علماء المدينة، وقد ذكر أنه جعل كتابه مرتباً على حروف المعجم الترتيب المعهود في الأسماء والآباء والأنساب والجدود، مبتدئاً من الرجال بالأسماء، ثم بالكنى، ثم بالأنساب والألقاب، وجعل الجزء الأخير منه في تراجم النساء.

وقد استفدت منه كثيراً في كافة فصول البحث، لأن الفترة التي أرخ لها تعتبر قمة

الإزدهار العلمي في الحرمين الشريفين.

وكتاب «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» من تصنيف أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، ويقع في أربعة أجزاء، ويعد من الكتب المهمة، فهو يتضمن تراجم القرن الثامن الهجري من علماء ومحدثين وفقهاء ومؤرخين وسلاطين ووزراء وغيرهم، مرتبة أسماؤهم ترتيباً أبجدياً، وقد أخذ العسقلاني شطراً كبيراً من التراجم من مؤلفات المؤرخين الذين كانوا قبله، وقد أتى بتراجم كثير من النساء العالمات واشتغالهن بالتدريس والتحديث والتأليف، ولقد وجدت في هذا الكتاب معلومات مفيدة عن المدرسين المجاورين بالحرمين الشريفين ومعلومات أخرى عن العلوم والمؤلفات والإجازات العلمية.

ولابن حجر أيضاً كتاب «أنباء الغمر بأبناء العمر»، وقد خصصه للحوادث والوفيات التي وقعت في عصره منذ ولادته في سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م حتى سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م ، أي قبل وفاته بسنتين، ولقد ذكر مؤلف هذا الكتاب كل ما وقع خلال تلك الفترة من الحوادث المهمة في العالم الإسلامي مع التوسع في أخبار مصر والشام وما يجري فيها من شؤون ومحاكمات ومناقشات سياسية وإدارية وفقهية، وأخبار سائر الدول الإسلامية.

وله أيضاً كتاب «المجمع المؤسس للمعجم المفهرس» وهذا الكتاب حقق منه الجزء الأول، أما الجزء الثاني فلايزال مخطوطاً، وقد جعله ابن حجر لشيوخه الذين أخذ عنهم علم الحديث، وقد نقلت معظم المعلومات الخاصة بعلماء الحجاز ومجاوروه من الجزء المخطوط.

وهناك أيضاً كتاب «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» تصنيف عبدالحي ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، ويقع في ثمانية أجزاء، وقد رتبه على السنين من هجرة الرسول ﷺ حتى سنة ألف هجرية، وذكر فيه ما وقع من الحوادث، وتضمن تراجم الملوك والعلماء والأعيان والشخصيات البارزة من أهل الدين والسياسة والعلم والأدب، وقد أفادني هذا الكتاب في المعلومات المتعلقة بالعلماء والسلاطين وغيرهم، وكذلك دور

المرأة العلمي في الحجاز.

وكتاب «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» لمحمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ/١٨٣٤م)، فقد وجدت فيه معلومات نادرة عن مؤلفات علماء الحجاز ومجاوروه. وكتاب «سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي» لعبدالملك بن حسين العصامي (ت١١١١هـ/١٦٩٩م)، وكتاب «نظم العقيان في أعيان الأعيان» للسيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، وقد أورد كل منهما معلومات قيّمة عن الحركة العلمية في الحجاز بواسطة التراجم التي وردت في كتابيهما.

وكتاب «مرآة الجنان وعبرة اليقضان» لعبدالله بن أسعد بن علي اليافعي اليمني المكي (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، أرّخ فيها للأحداث والأعيان، وقد بدأه بالسنة الأولى للهجرة وختمه بنهاية سنة خمسين وسبعمائة من الهجرة، واستقينا منه المعلومات الخاصة بعلماء الحجاز وإنتاجهم العلمي.

سادساً: المصادر المتخصصة في فنون العلم:

يتصدرها كتاب «غاية النهاية في طبقات القراء» لمحمد بن محمد ابن الجزري (ت٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، العالم المشهور في علم القراءات، وهو أحد العلماء المجاورين في الحرم المكي، والذي مكنته حصيلته العلمية واجتماعه مع كثير من علماء القراءات في الحرمين الشريفين إلى إبرازهم في كتابه، حيث استفدنا بشكل كبير من التراجم التي أوردها لعلماء القراءات وحلقاتهم، وإنتاجهم العلمي في الحرمين الشريفين.

وكذلك كتاب «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، الذي ترجم فيه لعلماء اللغة والأدب بكافة فنونها، واستفدت منه في المبحث الخاص بالدراسات الأدبية واللغوية. وكتاب «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» للسخاوي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)،وقد مدّ البحث بدراسات قيّمة للعلماء الذين شاركوا في التاليف في حقل العلوم الإجتماعية في هذا العصر، كما بيّن لنا بعض الكتب الموجودة في المكتبات في الحجاز في ذلك العصر.

وهناك أيضاً كتب الطبقات، خاصة «طبقات الشافعية» التي ألف فيها كل من السبكي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م)، والأسنوي (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م)، وابن قاضي شهبة

(٨٥١هـ/١٤٤٧م)، حيث أوردت هذه الكتب اتباع المذهب الشافعي ومؤلفاتهم ودورهم في الحرمين الشريفين.

وكتاب «تذكرة الحفاظ» للذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، وذيول تذكرة الحفاظ، خاصة «لحظ الالحاظ» للتقي بن فهد (ت٨٧١هـ/١٤٦٦م)، أحد أفراد أسرة ابن فهد المكية المشهورة والذي تضمن كتابه بعض علماء الحجاز ومؤلفاتهم في فنون المعرفة، خاصة علم الحديث.

سابعاً: كتب الرحلات:

ومن أهم هذه الكتب ، رحلة محمد بن أحمد بن جبير (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، المسماة «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» ورحلة ابن بطوطة المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» لمؤلفها أبي عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، وهذان الكتابان يعدان من المصادر الأساسية التي اعتمدت عليها في دراسة الحياة الإقتصادية والإجتماعية والعلمية بمكة المكرمة، كما استفدت منهما في استقاء المعلومات عن المجاورين، وخزائن الكتب بالمسجد الحرام، والأربطة التي كانت معروفة في عصرهما.

كما تعتبر رحلة أبي القاسم بن يوسف التجيبي السبتي (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، المسماة «مستفاد الرحلة والإغتراب» من المصادر المهمة لدراسة الحياة العلمية والعادات الإجتماعية بمكة المكرمة، وأورد لنا كثيراً من الشخصيات العلمية الذين قابلهم أثناء رحلته واعطانا معلومات عن الكتب التي تدرس في الحرم المكي الشريف.

وهناك أيضاً كتاب «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة» لأبي عبدالله محمد بن عمر بن رشيد (ت٧٢١هـ/١٣٢١م)، و «الرحلة المغربية» لأبي عبدالله محمد بن محمد العبدري، وقد استقينا منها معلومات قيّمة عن العادات الإجتماعية في المدينة المنورة، والحياة العلمية في الحرمين الشريفين.

وكتاب «صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، ا لمسماه تأريخ المستبصر» لابن المجاور جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب الشيباني الدمشقي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م). وعلى الرغم من تقدم كتابه عن الفترة الزمنية لعصرنا، إلا أن

المعلومات التي ذكرها في الحياة الإقتصادية والإجتماعية لمكة ذكرها غيره من الرحالة الذين أتوا من بعده مما يعني أن الواقع الإجتماعي لم يتغير كثيراً، إضافة إلى وصف الحياة الإجتماعية في الطائف التي لم نجدها في أي مصدر من المصادر المعاصرة لتلك الفترة.

هذا بالإضافة إلى كثير من المعاجم الجغرافية ، مثل «معجم البلدان» لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، و «تقويم البلدان» لأبى الفدا (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، و «الروض المعطار» للحميري (ت٩٠٠هـ/١٤٩٤م)، وغيرها من المصادر الجغرافية التي أفادت البحث في توضيح بعض الأماكن والمواقع الحجازية، وغيرها من البلدان الأخرى التي ينتسب إليها العلماء المجاورين في الحرمين الشريفين، والكتب الجغرافية الحجازية الحديثة التي ألفها عاتق بن غيث البلادي، وأعطانا معلومات معاصرة لتعريفات هذه الأماكن والآثار الحجازية.

أضف إلى ذلك المعاجم اللغوية، مثل «لسان العرب» لابن منظور (ت٧١١هـ/١٣١١م)، و «القاموس المحيط» للفيروز أبادي (ت٨١٧هـ/١٤١٤م)، و«المعجم الوسيط» الذي أنتجه مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وقد استقينا منها تعريفات عامة للمدارس، والأربطة وغيرها في ثنايا البحث.

كما أفاد البحث من كتب «مفتاح السعادة» لطاش كبرى زادة (ت٩٦٢هـ/١٥٥٤م)، و«المقدمة» لابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، و«كشف الظنون» لحاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ/١٦٥٦م)، و«هدية العارفين» و«إيضاح المكنون» للبغدادي (ت١٣٣٩هـ/١٩٢٠م)، وهذه الكتب جميعها أفادتنا في دراسة الإنتاج العلمي بوجه عام.

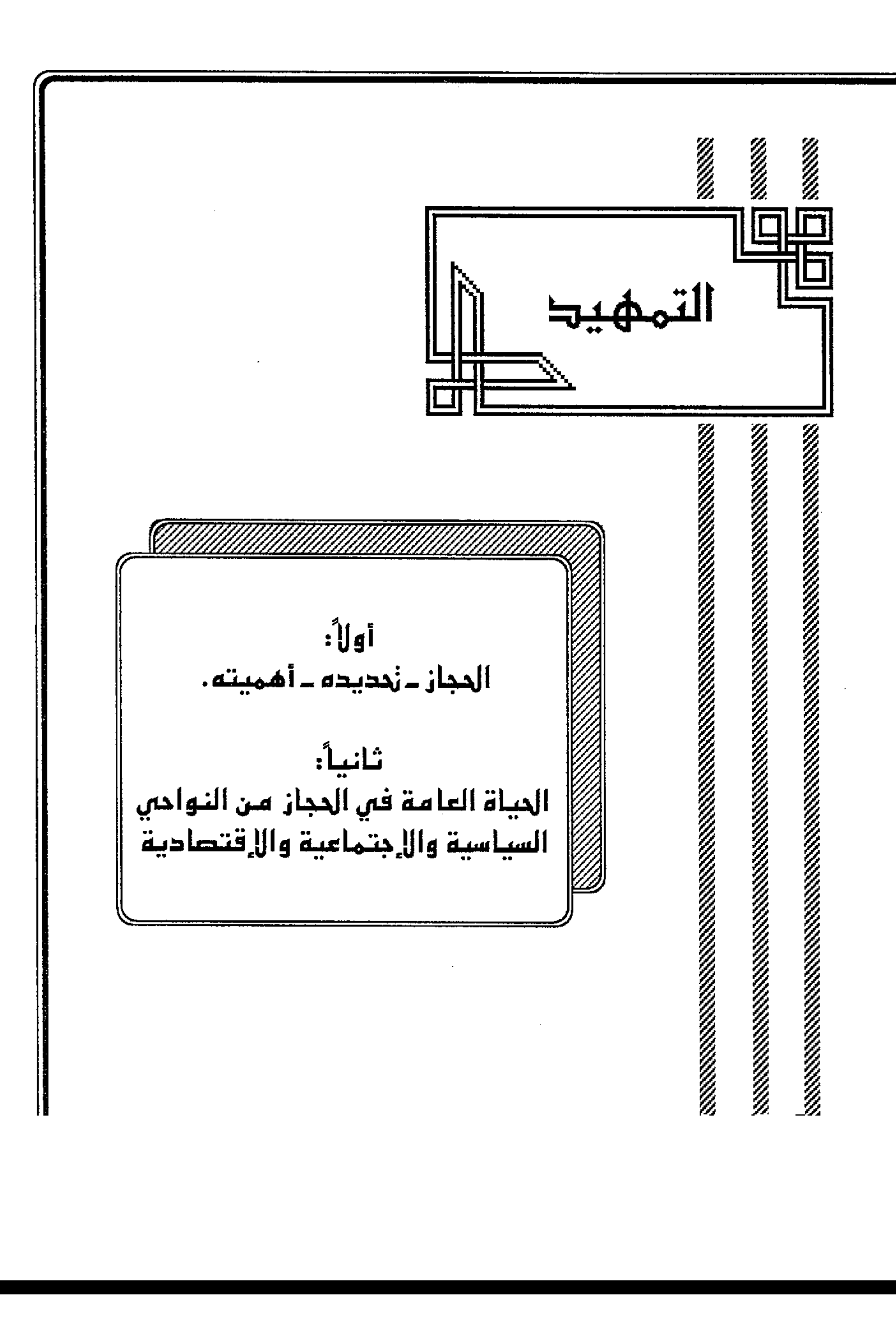
إضافة إلى فهارس المخطوطات، سواء ا لمطبوعة والمتداولة في المكتبات، أو الفهارس التي تضمها المكتبة المركزية، أو مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، والتي بيّنت لنا كثيراً مصير كتب علماء تلك الفترة في كافة فنون المعرفة.

كما لا أغفل في نهاية تحليلي لهذه المصادر أن أذكر مرجع هام، وهو كتاب

«العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك» لعلي بن حسين السليمان الذي كان بمثابة بوابة العبور والمفتاح الأول لمعرفة مصادر العصر المملوكي والحجازي لتلك الفترة، حيث يعتبر من أوائل من كتب عن الحياة العلمية في الحرمين الشريفين من خلال كتابه القيّم.

وبجانب ذلك اعتمد البحث على عدد كبير من المصادر والمراجع التي اسهمت مجتمعة في بناء البحث بالشكل الذي ظهر فيه، وجميع هذه المصادر جرى حصرها في الملحق الخاص بالمصادر والمراجع في آخر هذه الرسالة.

والله ولي التوفيق ،،،



التمهيد

أولاً:
الحجاز - تحديده - أهميته.

ثانياً:
الحياة العامة في الحجاز من النواحي السياسية والإجتماعية والإقتصادية

أولاً: الحجاز ـ تحديده وأهميته:

أ - تحديد الحجاز:

الحجاز: بكسر الحاء في اللغة مأخوذ من (الحَجْز) وهو اسم للحاجز لغة وللبلد المعروف اصطلاحاً وسمي بذلك من الحجز. أي الفصل بين الشيئين.[1]

ويضيف البكري نقلاً عن الخليل بن أحمد[2] أنه سمي حجازاً لأنه فصل بين

---

(١) البكري، عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقاء، الطبعة الأولى (القاهرة، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م)، ج١/ص١٢، ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري: لسان العرب، الطبعة الأولى، (بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ج٥/ص ٣٣١.

(٢) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي: نحوي، لغوي، وهو أول من استخرج العروض، وحصن بها أشعار العرب توفي بالبصرة سنة ١٧٠هـ، وصنف كتباً منها: «العروض والشواهد»، «الإيقاع»، «الجمل»، «العين»، أنظر ترجمته في (ابن النديم، محمد بن إسحاق: الفهرست، (بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، بدون. ت)، ص٦٣ ـ ص٦٤، ياقوت، شهاب الدين أبي عبدالله الرومي الحموي: معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، الطبعة الأولى: (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/١٩٩١م)، ج٣/ص٣٠٠ ـ ص ٣٠٢، اليماني، عبدالباقي بن عبدالمجيد: إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تحقيق الدكتور عبدالمجيد دياب، الطبعة الأولى (الرياض، شركة الطباعة العربية السعودية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص١١٤، ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق فهيم محمد شلتوت، (القاهرة، توزيع مكتبة ابن تيمية مصور عن طبعة دار الكتب المصرية، بدون. ت)، ج١/ص٣١١ ـ ص ٣١٢، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، بدون. ت)، ص٥٥٣ ـ ص ٥٥٩ .

الغَوْر[١] وبين الشام، وبين تهامة ونجد.[٢] والحجاز جبل ممتد حال بين الغَوْر: غور تهامة ونجد، فكأنه منع كل واحد منهما أن يختلط بالآخر، فهو حاجز بينهما.[٣].

ويتفق الأصمعي[٤] والقليوبي على هذه التسمية[٥]، بينما يرى الحميري: أنه سمي حجازاً لأنه حجز بين الغور والشام، وقيل لأنه حجز بين نجد والسراة[٦]، ويرى

---

(١) الغَوْر: بالفتح ثم السكون، المنخفض من الأرض، قال الأزهري: الغور تهامة وما يلي اليمن - ياقوت : معجم البلدان، (بيروت، دار صادر، بدون . ت) ج٤/ص٢١٧، والأصح أن تكون الغور «اليمن» فيكون الحجاز قد سمي كذلك لأنه يفصل بين اليمن والشام - (السيف، عبدالله محمد: الحياة الإقتصادية والإجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، الطبعة الثالثة، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣)، ص٣٣.) .

(٢) معجم ما استعجم، ج٢، ص١٢.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج٢/ص٢١٨.

(٤) عبدالملك بن قريب بن عبدالملك الأصمعي - من مشاهير علماء اللغة والأدب والنحو والتاريخ، واختلف في تاريخ وفاته، والأرجح سنة ٢١٠هـ بالبصرة، وله الكثير من الكتب منها: «نوادر الاعراب» و «كتاب اللغات» و «المذكر والمؤنث»، (ابن النديم: الفهرست، ص٨٢، السيوطي: بغية الوعاة، ج٢/ص١١٢ - ص١١٤).

(٥) ياقوت: معجم البلدان، ج٢/ص٢١٩، القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه، محمد حسين شمس الدين، الطبعة الأولى، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ج٤/ص٢٥٢، القليوبي، أحمد بن أحمد بن سلامة: النبذة اللطيفة في بيان مقاصد الحجاز ومعالمه الشريفة، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى، مكة، ميكروفيلم رقم ١٠٧٧ تاريخ عن دار الكتب المصرية برقم ٢٤٩٢، ورقة ٣أ.

(٦) الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق: إحسان عباس (بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٥م)، ص١٨٨، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٥٢.

الأزهري: أنه سمي حجازاً لأن الحرار[1] حالت بينه وبين عالية نجد.[2]

ويكاد الجغرافيون يتفقون على أن الحجاز سمي حجازاً لأنه يفصل بين شيئين أو بين منطقتين ولكنهم يختلفون في التحديد الجغرافي للحجاز، وقد قدمت بحوث عديدة في محاولة لفهم التحديد الجغرافي للحجاز عند العرب من خلال ما كتبه الجغرافيون المسلمون في العصور المختلفة.[3]

والناظر في هذه التعريفات يجد خلافاً شديداً بين مفهوم هؤلاء المؤلفين للحجاز، وفي تحديدهم لمناطقه، ويجد تناقضاً يصعب تفسيره، والسبب في ذلك يعود إلى اختلاف الحدود الإدارية لأقسام جزيرة العرب[4]، وأن هؤلاء المؤلفين قد كتبوا في عصور مختلفة، فكان كل واحد منهم متأثراً بما يسود في عصره من تقسيمات إدارية تؤثر بالتالي على التعريف الجغرافي للمنطقة التي يكتب عنها.

---

(١) وهي الحرار الخمس : حرة بني سليم، حرة واقم، حرة النار، حرة شوران، وحرة ليلى (ياقوت: معجم البلدان، ج٢/ص٢١٩، الفيروز آبادي، مجدالدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص٦٥٣.

(٢) الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون وآخرين (القاهرة، ١٩٦٤م)، ج٤/ص١٢٢.

(٣) مثال ذلك ـ البحث الذي كتبه الدكتور صالح أحمد العلي بعنوان (تحديد الحجاز عند المتقدمين) في الجزء الأول من السنة الثالثة من (مجلة العرب) التي تصدرها دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض، وقد صدر هذا العدد سنة ١٣٨٨هـ، كذلك البحث الذي كتبه الدكتور عبدالله ناصر الوهيبي بعنوان: (الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب)، من المجلد الأول من السنة الأولى من مجلة كلية الأداب ـ جامعة الرياض سنة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م).

(٤) صالح العلي: تحديد الحجاز عند المتقدمين، ج١/ص٢ ـ ص٤، عبدالله الوهيبي: الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب ، المجلد الأول، ص٥٥، عبدالله السيف: الحياة الإقتصادية والإجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، ص٣١.

فمن هذه الأقوال من جعل الحجاز هو الحاجز بين اليمن والشام وبين نجد وتهامة.[١] ومنهم من جعله الحاجز بين نجد وتهامة فقط، واعتبر مكة تهامية، والمدينة حجازية، والطائف حجازية[٢]، وقيل: المدينة نجدية وقيل تهامية، وقيل نصفها نجد ونصفها تهام.[٣]

وتذكر المصادر نقلاً عن ابن الكلبي في موضع آخر: الحجاز ما حجز بين اليمامة والعروض[٤]، وفيما بين اليمن ونجد، فصارت نجد ما بين الحجاز إلى الشام وإلى العذيب[٥]، والطائف من نجد، والمدينة من نجد.[٦] ويقول الحربي: «والطائف تدخل في

---

(١) البكري: معجم ما استعجم، ج١/ص١٢، الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسني المكي: الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى، مكة، ميكروفيلم رقم ٧٢٧ تاريخ عن مكتبة المتحف العراقي ببغداد برقم ١٣٨٥، ورقة ٤، القليوبي: النبذة اللطيفة، ورقة ٣أ - ورقة ٣ب.

(٢) الأصفهاني، الحسن بن عبدالله: بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي (الرياض، دار اليمامة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ص١٤، ياقوت: معجم البلدان، ج٢/ص٢١٩، العباسي، أحمد بن عبدالمجيد: عمدة الأخبار في مدينة المختار، تصحيح: محمد الطيب الأنصاري، وحمد الجاسر، (المدينة المنورة، المكتبة العلمية، بدون ت)، ص٢٩٧، ابن خميس، عبدالله بن محمد: المجاز بين اليمامة والحجاز، (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، بدون ت)، ص٣٢٨.

(٣) القليوبي: النبذة اللطيفة، ورقة ٣ب.

(٤) العروض: قرى بين الحجاز واليمن (ياقوت: معجم البلدان، ج٤/ص١٠٣).

(٥) العذيب: بفتح العين المهمله وضم الدال المعجمه وسكون الياء ثم باء موحده و هو ماء بين القادسية والمغيثة، وبينه وبين القادسية أربعة أميال، وإلى المغيثة اثنان وثلاثون ميلاً، وهو وادي لبني تميم ومنزل من منازل الحج العراقي (ياقوت: معجم البلدان، ج٤/ ص ٩٢).

(٦) الحربي، إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، الطبعة الثانية، (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص٥٣٧، البكري: معجم ما استعجم، ج١/ص١٠.

نجـد، لأن حدها مـا بين فـيـد[1] إلى المدينة، إلى أعـــالي أرض تميم[2]، والطائف منها».[3]

وقد اختلف الجغرافيون في حدود الحجاز الجغرافية، ولكن أقدم من حددها ما قاله الشافعي، بأن الحجاز «مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها»[4]، وكـذلك مـا روي عن الأصمعي: «الحجاز من تخوم[5] صنعاء إلى تخوم الشام».[6] وأقــرب الآراء إلى التحديد الجغرافي للحجاز ما رواه الهمذاني عن ابن ا لكلبي الذي حدد الحجاز جنوباً

---

(١) فَيد: بفتح الفاء، بليدة بنجد على منتصف طريق حجاج العراق من الكوفة إلى مكة قريب من سلمى أحد جبال طيء، وبها يودع الحجاج بعض أمتعتهم، وتبعد عن الكوفة بمائة وتسعة فراسخ (أبي الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر: تقويم البلدان، (باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م)، ص٩٧ - وموقعها جنوب حائل، أنظر، البلادي، عاتق بن غيث: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، الطبعة الأولى، (مكة، دار مكة للطباعة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص٢٣٩ - ص٢٤٠.

(٢) نسبة إلى قبيلة تميم أشهر القبائل التي تسكن أرض نجد (كحالة، عمر رضا: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، الطبعة الثانية، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ج١/ص١٢٦.

(٣) المناسك، ص٥٣٧.

(٤) الفيروز آبادي : المغانم المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر، الطبعة الأولى، (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م)، ص١٠٢، القاموس المحيط، ص٦٥٣، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٥٠، السمهودي، نور الدين علي بن أحمد: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبدالمجيد، الطبعة الرابعة، (بيروت، دار التراث العربي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ج٤/ص١١٨٢، العباسي: عمدة الأخبار، ص٢٩٦.

(٥) التخوم: بالضم، الفصل بين الأرضين من العالم والحدود، وارضنا تتاخم أرضكم: أي تحادها (الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص١٣٩٩).

(٦) ياقوت: معجم البلدان،ج٢/ ص ٢١٩.

بقعرة[1] اليمن حتى أطراف بوادي الشام، أي أنه اعتبر الحجاز سلسلة جبال السروات بأكملها[2]، التي تمتد من أقصى جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها، تاركاً سهول تهامة الضيقة في الغرب، وهضبة نجد في الشرق، ويجب أن نتنبه لرواية الهمذاني، لأن بعض أقسام جبال السروات، وخاصة في جنوبها وشمالها لاتسمى حجازاً، بل أن الحجاز يقع وسط السلسلة من هذه الجبال[3]، كما أن اسم الحجاز يشمل في العرف تهامة أيضاً[4]، وبذلك يكون الحجاز هو المنطقة الممتدة من خط عرض ٢٠° شمالاً إلى خط عرض ٢٩° شمالاً.[5]

أما تحديد الحجاز الإداري الحديث فإنه لايختلف كثيراً عن التحديد الجغرافي في الكتب القديمة عند العرب، فقد حدده بعض المؤلفين بقوله: (يحدُّ الحجاز من الغرب البحر الأحمر، ومن الشرق البادية الكبرى[6]، ومن الجنوب بلاد قبيلة بني مالك الكائنة بجبال

---

(١) قعرة: من قَعْرُ كل شيء: أقصاه، والمقصود هنا أقصى بلاد اليمن، (الفيروز آبادي: القاموس، ص٥٩٧).

(٢) صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ص٥٨، البكري: معجم ما استعجم، ج١/ص٩، الوهيبي: الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب، المجلد الأول، ص٦٧.

(٣) العلي: تحديد الحجاز عند المتقدمين، ج١/ص٥

(٤) الدباغ، مصطفى مراد: الجزيرة العربية، (بيروت، دار الطليعة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م)، ج١/ص٦٥، الشريف، أحمد إبراهيم: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، (القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٨م)، ص٣.

(٥) الدباغ: الجزيرة العربية، ج١/ص٦٥.

(٦) يعني نجد (ياقوت: معجم البلدان، ج١/ص٣١٨).

السروات المتاخمين لبلاد زهران[1]، وشمالاً بادية الشام إلى تبوك من الداخل، ومن جهة البحر الأحمر العقبة).[2]

ب - أهميته:

اكتسبت بلاد الحجاز مكانة دينية وسياسية منذ ظهور الإسلام وتأسيس الدولة الإسلامية الأولى[3]، وظلت البلاد محتفظة بمكانتها الدينية حتى اليوم وستبقى إن شاء الله إلى قيام الساعة .

فقد ظهرت في الحجاز بعض المدن التي ادت دوراً مهماً في التاريخ الإسلامي، وذلك باعتبارها مراكز دينية مثل مكة والمدينة أو مراكز تجارية مهمة مثل جدة وينبع المنفذين المهمين لتجارة الحجاز على البحر الأحمر، ومدينة الطائف وضواحيها التي كانت تعد مورداً تجارياً مهماً لغذاء أهل مكة وقراها من حبوب وفواكه وأمثالها.

ومكة المكرمة هي العاصمة الإسلامية وأقدم المدن التاريخية، وهي التي اعتبرت على مرّ الزمن عند العرب القاعدة الرئيسية لبلاد الحجاز على مر العصور، وهي في واقعها الحضاري والسياسي والإجتماعي قاعدة الحجاز وأم القرى.[4]

---

(١) زَهْران: بفتح أوله، وإسكان ثانية، بعد راء مهملة: بلد بالسراة، وفيه الجبل المعروف بذي كشاء، البكري : معجم ما استعجم ، ج١/ ص ٧٠٤ ، ج٢/ص١١٢٩).وتقع بلاد زهران في الجنوب الغربي من المملكة العربية السعودية في أواسط بلاد الحجاز وتهامة ، وتبعد عن مدينة الطائف ١٨٠ كم ، ويوجد بها حوالي ٥٠٠ قرية منتشره في كافة انحاء بلاد زهران ، ويسكنها نحو ٣٥٠ ألف نسمه تقريباً جميعهم من الحضر ، (الزهراني ، محمد مسفر حسين : لمحات من بلاد زهران ، الطبعة الأولى ، (نشر الرئاسة العامة لرعاية الشباب ، ١٤٠٣هـ) ، ص ١١) .

(٢) كحال ، عمر رضا : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص١٣١.

(٣) خفاجي، أحمد عبدالحميد: موقف مصر من الحجاز في عصر المماليك الجراكسة، (رسالة ماجستير، آداب الإسكندرية، ١٩٦٨م)،ص٢.

(٤) الأصفهاني: بلاد العرب، ص١٤، ياقوت: معجم البلدان، ج٢/ص٢١٩، الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الحسن المكي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، حققه لجنة من كبار العلماء والأدباء، ج١/ص٢٦، الألوسي، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، (بغداد، ١٣١٤هـ)، ج١/ص٩٤.

ومكة تقع في بطن وادي مقدس يسمى باسمها[1]، وتحيط بها الجبال من كل جانب[2]، وبها الكعبة المشرفة مهد الديانات ومقصد العرب في الجاهلية وقبلة المسلمين بعد ذلك، يقول الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾[4]، ويقول تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[5] مما جعلها ينبوعاً حضارياً بقدوم الناس من كل مكان، والقاعدة الروحية لكل مسلم في أصقاع الأرض، وكانت مكة ولاتزال من أهم المراكز التجارية بالحجاز، ويعزى انتعاشها وازدهارها إلى وجود البيت الحرام، فضلاً عن وقوعها في منتصف الطريق بين الشام واليمن، وقربها من ميناء جدة على البحر الأحمر[6]، مما جعلها مسلكاً للتجار وأكسب أهلها أهمية تجارية منذ أقدم العصور.

---

(١) ابن جبير، أبو الحسين محمد ابن أحمد الكناني: رحلة ابن جبير، (بيروت، ١٩٦٤م)، ص٨٧، الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص٢٣.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٨٧، الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص٢٣، السباعي، أحمد: تاريخ مكة ـ دراسات في السياسة والعلم والإجتماع والعمران، الطبعة السادسة، (مكة، مطبوعات نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ج١/ص١٥، عبدالله، عبدالرحمن صالح: تاريخ التعليم في مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (جدة، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م)، ص٢١.

(٣) سورة الحج، آية ٢٧.

(٤) سورة آل عمران، آية ٩٦ ـ آية ٩٧.

(٥) سورة إبراهيم، آية ٣٧.

(٦) الشريف، أحمد إبراهيم: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، (القاهرة، ١٩٦٥م)، ص١٩، خفاجي: موقف مصر من الحجاز في عصر المماليك الجراكسة، ص٣ ـ ص٤.

أما المدينة المنورة فإنها تحتل المكانة الثانية في نفوس العالم الإسلامي بعد مكة المكرمة، لأنه مهجر الرسول وبها مسجده ﷺ، وقد اختارها الله له عندما أخرجته قريش من مكة.(١)

وتقع المدينة إلى الشمال من مكة في الطريق إلى الشام، وهي على العكس من مكة التي عرفت بأنها تقع في وادٍ غير ذي زرع، فإن المدينة تقع في سهل خصيب يمتاز بوفرة المياه وكثرة النخيل والثمار الحسنة.(٢) ومن أهم آثار المدينة، المسجد النبوي الشريف، وبه قبر الرسول ﷺ، حيث أصبحت عاصمة الإسلام الأولى بعد قيام دولته في المدينة، ثم في عهد الثلاثة الأوائل من الخلفاء الراشدين، ولقد ورد في فضل المدينة المنورة على البلدان وقداستها الكثير من الروايات الصحيحة في الأحاديث الشريفة والكلمات المأثورة، عدا ما جاء في القرآن الكريم من إستشهادات وبيان لكرامتها.(٣) فأصبحت المدينة مزار المسلمين من كل أقطار الدنيا، خاصة حين قدومهم لأداء فريضة الحج.

أما جدة فهي متنفس أهل الحجاز للتجارة والرحلة إلى العالم لموقعها الإستراتيجي المهم، حيث تقع على ساحل البحر الأحمر، وهي مفتاح البحر لمكة.(٤)

وأول من اهتم بها في الإسلام هو الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٢٦هـ/٦٤٦م بعد أن شاور الناس في ذلك، إذ كانت الشعيبة(٥) ساحل مكة

---

(١) السمهودي: وفاء الوفا، ج١/ص٢٢٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢/ص٢٩٢ - ص ٢٩٤.

(٣) حافظ، عبدالسلام هاشم: المدينة المنورة في التاريخ - دراسة شاملة - الطبعة الثالثة، (المدينة، منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص٣٤.

(٤) ياقوت: معجم البلدان، ج٢/ص١١٤، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٦٣.

(٥) الشعيبة: تصغير شعبة، وهو مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وقال ابن السكيت: الشعيبة قرية على شاطيء البحر على طريق اليمن، (ياقوت: معجم البلدان، ج٣/ص٣٥١) وهي على بعد ٦٨ كيلو متراً جنوب جدة، (رفعت، إبراهيم: مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، (القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ/١٩٤٥م)، ج١/ص٢٣ ، البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج ٥/ص ٧٤ .

التجاري قبل الإسلام[(١)]، ومنذ ذلك التاريخ وجدة ميناء أم القرى، تنتهي إليها المراكب من مصر واليمن وغيرهما.[(٢)] واستمرت جدة في النمو شيئاً فشيئاً تبعاً لزيادة دخلها بزيادة عدد الحجاج وقوة الحركة التجارية التي تقوم فيها في مواسم الحج، ثم بدأ التجار يأتون إليها بعد نزولهم بعدن[(٣)]، فيمرون بها في طريقهم إلى مكة، ويقيمون في خاناتها[(٤)]، ويتجرون في أسواقها، ويتهيأون منها لدخول البيت الحرام، وسرعان ما أصبحت جدة ليست ميناء مكة فقط بل ميناء الحجاز كله.[(٥)]

---

(١) ابن المجاور، جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب الشيباني الدمشقي: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماه تأريخ المستبصر، تصحيح، أوسكر لوفقرين، الطبعة الثانية، (بيروت، شركة دار التنوير للطباعة والنشر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ص٤٢ – ص٤٣، ياقوت: معجم البلدان، ج٣/ص٣٥١، رفعت: مرآة الحرمين، ج١/ص٢٣ ـ ص٢٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/٢٦٣ .

(٣) عدن: بفتح العين والدال المهملتين ونون: وهي على ساحل البحر، بلدة حط وإقلاع لمراكب الهند وهي بلدة تجارية، (أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٩٣)، وأنظر كذلك ياقوت: معجم البلدان، ج٤/ص٨٩.

(٤) الخان: كلمة فارسية أصلها خانة وتعني البيت أو الدار ثم استعملت اللفظة بكثرة في مصر والشام ومعظم البلاد الإسلامية الشرقية، ذكرها المؤرخون في عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك، والخان عبارة عن مبنى ضخم يحتوي على مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة ومستودعات للبضائع، ويتوسط الخان فناء ضخم على هيئة رواق مغطى حيث يحفظ التجار بضائعهم ويجدون في الخان المأوى لهم ولدوابهم، (فهمي، نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها أواخر العصور الوسطى، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص٢٩٣، القوصي، عطية: تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، (القاهرة، دار النهضة العربية، بدون ت)، ص١٩٧، حسنين، عبدالمنعم محمد، قاموس الفارسية، (الطبعة الأولى ، دار الكتب الإسلامية، ، ١٤٠٢هـ،) ص٢١٣.

(٥) الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بولس راويس (باريس، المطبعة الجمهورية، ١٨٩٤م)، ص١٣، ربيع، حسنين محمد: وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الإقتصادي، الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الرياض، كلية الآداب، قسم التاريخ، سنة ١٩٧٧م (الرياض، مطابع جامعة الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ج٢/ص١٣٥.

أما الطائف فهي من أقدم مدن الحجاز وأقربها إلى مكة، وتقع في جبال السروات فوق جبل غزوان.[١] وقد اشتهرت بطيب هوائها وبرد مائها[٢]، لذلك اتخذها أهل مكة ملجأ ومصيفاً لهم يستمتعون به[٣]. كما أمتازت الطائف بتنوع محاصيلها الزراعية ووفرة انتاجها التي تفيض عن حاجة السكان المحليين، ونتيجة لذلك، فقد أصبحت الطائف المورد الرئيسي لأسواق مكة بكل ما تحتاجه من فواكه وخضروات.[٤]

لذلك كان الكثير من عرب البوادي يغبطون أهلها على ما هم فيه من نعيم.[٥] ومن أشهر أودية الطائف وادي وَجّ [٦] الذي ورد ذكره من خلال بعض الأحاديث في حصار

---

(١) غَزْوان: بالفتح ثم السكون، وهو الجبل الذي على ظهره مدينة الطائف، (ياقوت: معجم البلدان، ج٤/ص٢٠٢).

(٢) ياقوت: معجم البلدان، ج٤/ص٩، ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٢٥، الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ ص ٨٩، جار الله ابن فهد، محمد بن عبدالعزيز بن عمر: حسن القرى في أودية أم القرى، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة، ميكروفيلم رقم ١٠٧٠، تاريخ عن مكتبة الأحقاف باليمن برقم ٩٨ مجاميع، ورقة ١٩.

(٣) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله: المسالك والممالك، (بغداد، مكتبة المثنى، بدون ت)ص ١٣٤.

(٤)الاصطخري: إبراهيم بن محمد: المسالك والممالك، (القاهرة، ١٣٨١هـ/١٩٦١م)، ص٢٧٤، ابن حوقل، أبو القاسم محمد: صورة الأرض، (بيروت، دار مكتبة الحياة، بدون ت)، ص٣٩، المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله بن أحمد بن بكر: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (ليدن، ١٩٠٦م)، ص٧٩، ابن جبير: الرحلة، ص١٢٢، ياقوت: معجم البلدان، ج٤/ص١١.

(٥) ياقوت: معجم البلدان، ج٤/ص١١.

(٦) وَجّ: بالفتح ثم التشديد، والوج في اللغة: عيدان يتداوى بها، وله عدة معان، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: إن آخر وطأة لله يوم وج: وهو الطائف وأراد بالوطأة الغزاة هنا، وكانت غزاة الطائف آخر غزوات الرسول ﷺ، وقيل سميت وجاً بوج بن عبدالحق من العمالقة ... (ياقوت: معجم البلدان، ج٥/ص٣٦١ ـ ص٣٦٢)، وذكر البلادي: ووج وادي الطائف الرئيسي يسيل من شعاف السراة جنوب غرب الطائف (معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص٢٣١).

الرسول ﷺ للطائف[1]، ولم تكن جدة هي ميناء الحجاز الوحيد، بل كان هناك ميناء آخر وهو ينبع يقع على ساحل البحر الأحمر[2]، بين مكة والمدينة، وقد سميت بذلك لكثرة ينابيعها، وقد ذكرت وثائق الجنيزة[3] على أنها كانت من أهم الموانيء ا لتجارية على البحر الأحمر[4]، بالإضافة إلى أنها كانت قريبة من طريق الحاج الشامي.[5]

وهكذا تتضح لنا أهمية الحجاز وموقعها الإستراتيجي المهم من خلال هذه المدن، وبالتالي أهميتها لدى الملوك والسلاطين الذين تعاقبوا على الإهتمام بهذه المنطقة والسيطرة عليها، إلى أن جاء عصر المماليك الذين اعتبروا أنفسهم بأن لهم الأحقية في أن

---

(١) ابن حنبل، أحمد: المسند، تحقيق أحمد شاكر، (مصر، دار المعارف، ١٣٧٤هـ)، ج١/ص١٦٥، أبو داود، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود مع حاشية عون المعبود، (بيروت، دار الكتاب العربي، بدون ت)، ص٩٣، ابن فهد: جار الله محمد بن عبدالعزيز: تحفة اللطائف في فضائل الحبر بن عباس والطائف، تحقيق محمد سعيد كمال، محمد منصور الشقحاء، الطبعة الأولى، (الطائف، نادي الطائف الأدبي، بدون ت)، ص٤١، العجيمي، حسن بن علي بن يحيى: إهداء اللطائف من أخبار الطائف، تحقيق يحيى محمود ساعاتي، الطبعة الثانية، (الطائف، دار ثقيف، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص٤٤.

(٢) السليمان، علي بن حسين: «العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك»، (رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص١٨٩.

(٣) الجنيزة: كلمة عبرية *Geniza* ـ مثل الكلمة العربية جنازة ـ مشتقة من الكلمة الفارسية بمعنى (خزانة) ـ وفي العصور الوسطى اطلقت على تلك الحجرة التي كان اليهود يخزنون فيها أوراقهم الخاصة من خطابات وعقود وإيصالات وخلافه، وهي مجموعة من الوثائق المهمة لدراسة التاريخ الإقتصادي والإجتماعي والثقافي لمنطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى، (ربيع: وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الإقتصادي لموانيء الحجاز واليمن في العصور الوسطى، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢/ص١٣١ ـ ص١٣٢.

(٤) ربيع: وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الإقتصادي لموانيء الحجاز في العصور الوسطى، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢/ص١٣٥.

(٥) ياقوت: معجم البلدان، ج٥/ص٤٥٠.

يكونوا حماة ورعاة لشئون الحرمين الشريفين، خاصة وأنهم هم الذين وقفوا في وجه الزحف المغولي، ولاشك أن السيطرة على هذه المنطقة تكسبهم الصفة الشرعية لإحياء الخلافة العباسية[١]، وأن يظهروا أمام المسلمين في المشرق والمغرب بمظهر المدافعين والحماة عن الأراضي المقدسة.

ومن الأسباب المهمة التي دعت المماليك إلى السيطرة على هذه المنطقة، رغبتهم الجادة في السيطرة على طريق التجارة عبر موانيء البحر الأحمر، وخاصة موانيء الحجاز المجاورة لبلاد اليمن المتحكمة في مدخل البحر الأحمر حيث كان بها عدن أهم مركز تجاري، وذلك رغبة في دفع تجار الشرق إلى جلب بضاعتهم إلى هذه الموانيء فيجنون من وراء ذلك أرباحاً طائلة، ومن ثم استتباع الحجاز والإشراف على اليمن[٢]، حيث كان بنو رسول[٣] يسيطرون على اليمن منذ عام (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) والإستيلاء على الحجاز

---

(١) وذلك حينما وصل الخليفة العباسي المستنصر بالله أبو القاسم أحمد بن الظاهر محمد بن الناصر العباسي إلى مصر في سنة ٦٥٩هـ في عهد الظاهر بيبرس سلطان مصر واستقبله وبايعه بالخلافة، وانتقلت الخلافة العباسية من بغداد إلى مصر بعد اجتياح التتار بغداد سنة ٦٥٦هـ وقتل الخليفة المستعصم بالله، (ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، تحقيق، أحمد أبو ملحم وعلي نجيب عطوى وفؤاد السيد ومهدي ناصر الدين وعلي عبدالساتر، الطبعة الأولى، (القاهرة، دار البيان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج١٣/ص٢٤٤ ـ ص٢٤٥.

(٢) العمري، ابن فضل الله: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق، دوروتيا كرافولسكي، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ج٢/ص٤٢، عاشور، سعيد عبدالفتاح: العصر المماليكي في مصر والشام، (القاهرة، ١٩٦٥)،ص٢٨٧.

(٣) بنو رسول: يرجع نسبهم إلى جدهم الأكبر محمد بن هارون بن أبي الفتح، وأما سبب تكنيته برسول فترجع إلى أن الخليفة العباسي آنس فيه رشداً وعقلاً فاختصه لسفارته إلى السلاطين في مصر والشام لأنه كان يتمتع بصفات شخصية ممتازة، كالوقار وثبات العقل ... مما أكسبه ثقة الخليفة العباسي، فقد كان الخليفة يرسله برسالة شفهية ويتلقى الإجابة عنه مشافهة، وهذا يدل على الثقة فيه، وقد حكم بنو رسول اليمن من سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٠م حتى سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م يحيى بن الحسين، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، محمد مصطفى زيادة، (القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ج١/ص٤١٩.

يعني السيطرة على طريق التجارة الدولية عبر البحر الأحمر عن طريق ميناء عدن، ومن هناك عبر البحر الأحمر إلى أفريقية، وفارس، والهند، وأندونسيا والصين.[١]

وقد ساعد على تثبيت دعائم المماليك في الحجاز عدة أمور ضمنت لهم السيطرة الفعلية على هذه المنطقة منها:

١ - إرسال الحاميات إلى الحجاز، لكي تضمن الإتصال السريع بين القاهرة والحجاز عندما كانت الأحوال تنذر بحركات معادية للمماليك في البلاد، أو عند الإحساس بانتفاض الأشراف على السلطة المملوكية.[٢]

٢ - جذب أمراء الأشراف إلى جانبهم لكونهم الحكام الفعليين للحجاز، واستغلال الخلافات المستمرة بينهم للتدخل.

٣ - إقامة الخطبة والدعاء لهم على المنابر في الحرمين الشريفين.

٤ - قيام كثير من سلاطين المماليك بالإصلاحات والعمائر في الحرمين الشريفين لتأكيد اهتمامهم بها.

٥ - إرسال كسوة الكعبة المشرفة سنوياً[٣]، وكسوة الحجرة النبوية الشريفة كل سبع سنوات تقريباً.[٤]

٦ - ضرب السكة باسمهم.[٥]

---

(١) العمري: مسالك الأبصار، ج٢/ص٤٢.

(٢) خفاجي: موقف مصر من الحجاز في عصر المماليك الجراكسة، ص١٧.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص١٢٣ - ص١٢٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٣٠٦، وفي سلطنة الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٣هـ - ٧٤٦هـ) كانت كسوة الحجرة النبوية كل خمس سنوات، (الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص١٢٣).

(٥) الفاسي: تقي الدين محمد بن أحمد الحسني، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق، محمد حامد الفقي، فؤاد سيد، محمود محمد الطناحي، الطبعة الثانية، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ج١/ص٤٦٢ - ص٤٦٣، العمري: مسالك الأبصار، ج٢/ص٤٢.

ثانياً: الحياة العامة في الحجاز من النواحي السياسية والإجتماعية والإقتصادية:

أ ـ الحياة السياسية:

لم يشهد الحجاز استقراراً سياسياً خلال القرنين السابع والثامن الهجري، حيث اشتعلت الفتن والنزاعات بين الأشراف بشكل كبير، والناظر إلى عدد الأمراء الذين تولوا إمارة الحجاز يدرك مدى تدهور الوضع السياسي في تلك الحقبة.[(١)]

وقد ساعدت هذه الظروف في التدخل المملوكي في الحجاز حينما قام السلطان المملوكي بيبرس[(٢)] بفض النزاع القائم بين الشريف أبي نمي[(٣)] وعمه إدريس بن

---

(١) أنظرأمثلة على الحروب بين الأشراف في حوادث سنوات (٦٥١هـ/١٢٥٣م)، (٦٥٢هـ/١٢٥٤م)، (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، (٦٦٧هـ/١٢٦٨م)، (٦٦٩هـ/١٢٧٠م)، (٦٧٠هـ/١٢٧١م)، (٧٠١هـ/١٣٠١م)، (٧٣١هـ/١٣٣٠م)، (٧٥١هـ/١٣٥٠م)، (٧٥٤هـ/١٣٥٣م)، (٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، (٧٦١هـ/١٣٥٩م)، وغيرها، النجم بن فهد، عمر بن محمد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم شلتوت، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى(جدة، دار المدني، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ج٣.

(٢) هو الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس بن عبدالله البندقداري الصالحي التركي، وهو الرابع من ملوك الترك، ونسبه هذا إلى الأمير علاء الدين ايدكين البندرقداري، الذي اشتراه، وكانت وظيفته حمل أكياس البندق الذي يرمي به، والسير به خلف السلطان أو الأمير، ثم انتقلت ملكيته إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاعتقه وقدمه على طائفة الجمدارية، وكان في جيش المظفر قطز حين هزم التتار بموقعة عين جالوت، وفي عودتهم منتصرين تآمر مع بعض الأمراء على قتل ا لمظفر قطز، فقتلوه، وأعلنوا سلطنة الظاهر بيبرس في سادس عشر ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ، التاسع من سبتمبر سنة ١٢٦٠م، واستمرت سلطنته حتى وفاته سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م بدمشق (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ص٩٤ ـ ص٢٠٠).

(٣) محمد بن الحسن بن علي بن قتادة ابن إدريس بن مطاعن الحسني، أبو نمي، من أشهر أمراء مكة، وتولى أمرها قرابة خمسين عاماً، وكانت فترة حكمه مليئة بالحروب والفتن، كما تخللها كذلك فترات أمن وهدوء واستقرار، وعرف بالشجاعة والحزم، توفي سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م)، (الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص٤٥٦ ـ ص٤٦٦، ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (بيروت: دار الجيل، بدون ت)، ج٣/ص٤٢٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨/ص١٩٩، النجم ابن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٣٤.

قتادة[١] أميري مكة سنة (٦٦٧هـ/١٢٢٨م)، وقد تمكن أبو نمي من طرد عمه إدريس لأن الأخير كان يميل إلى الرسوليين في اليمن، فأنفرد أبو نمي بإمارة البلاد، وخطب للملك الظاهر بيبرس.[٢]

وبذلك ازداد نفوذ المماليك في مكة على حساب نفوذ بني رسول، وانفردوا بالدعاء لهم على منبر الحرم المكي الشريف، ومع ذلك فقد تخللها فترات عصيان من أشراف مكة، أعيد فيها الدعاء لملك اليمن المظفر شمس الدين يوسف[٣]، وذلك سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م[٤] على الرغم من أن سلطان مصر المنصور قلاوون[٥] قد استحلف أبا نمي سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م بأن يكون عدواً لمن عاداهم وصديقاً لمن صادقهم، ولايخرج عن طاعتهم وأن يفردهم بالخطبة والسكة، ويفعل في الخدمة فعل المخلص.[٦]

---

(١) إدريس بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني، اشترك مع ابن أخيه أبو نمى في حكم مكة وقامت بينهما عدة حروب، انتهت بمقتله سنة (٦٦٩هـ/١٢٧٠م)، (الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٢٧٨ ـ ص٢٧٩، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٩٩).

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص٤٥٩، المقريزي، أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، سعيد عبدالفتاح عاشور، (القاهرة، دار الكتب، ١٩٧٢م)، ج١/٢: ص٥٧٩، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٩٣.

(٣) يوسف بن عمر بن علي بن رسول الملك المظفر، صاحب اليمن، ولي السلطنة بعد أبيه، سيطر على مكة والطائف وغيرها سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م وأخرج منها سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م وكسى الكعبة، وله مآثر كثيرة بالحجاز، وكانت مدة سلطنته ستاً وأربعين سنة، وتوفي سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م (الفاسي: العقد الثمين، ج٧/ ص٤٨٨ ـ ص٤٨٩).

(٤) المقريزي: السلوك، ج١/٣: ص٧٨٦.

(٥) الملك المنصور سيف الدين قلاوون بن عبدالله الألفي التركي الصالح النجمي، سابع ملوك الترك بالديار المصرية، تولى الملك في رجب سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، وكان على يديه فتح معظم حصون الصليبيين في البلاد الشامية، وطبقت انتصاراته عليهم الآفاق، ومرض عند خروجه للغزو من القاهرة، ومات في مخيّمه عند مسجد التبن في ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ص٢٩٢ ـ ص ٣٤٤).

(٦) أنظر نص اليمين التي أقسمها أبونمى (الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص٤٦٢ ـ ص ٤٦٣).

وكان لإبنه الناصر محمد بن قلاوون[١] من نفوذ الكلمة بمكة و استبداده بأمر الولاية فيما لم يكن لمن قبله من ملوك الترك بمصر[٢]، حيث كان يعمد إلى إصلاح الأمر بالمال والمداراة حيناً، وإلى فرض سيطرته بالقوة وإرسال الحملات حيناً آخر.

وفي عهده توفي أبو نمي وخلفه أربعة أبناء تنازعوا الأمر بعده، وهم أبو المغيث[٣]، وعطيفة[٤]، وحميضة[٥]، ورميثة.[٦] ودام تنازعهم ستة وثلاثين عاماً منذ

---

(١) السلطان الناصر محمد بن المنصور بن قلاوون، ولد بالقاهرة سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، وتولى السلطنة ثلاث مرات الأولى في سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م بعد قتل أخيه الأشرف خليل، ثم خلع في المحرم سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م وعمره نحو العشر سنين، والثانية في سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، ثم عزل نفسه واستقر بقلعة الكرك في شوال سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، وهزم إبان توليته هذه جحافل التتار هزيمة منكرة على تل شقحب بالشام، والثالثة سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م حينما قدم من دمشق واسترد ملكه من المظفر بيبرس الجاشنكير، وتوفي سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م، (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج٨/ص٤١ حتى نهاية الجزء، ثم الجزء التاسع كله).

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص١٩١.

(٣) أبو المغيث بن أبي نمي، يلقب عماد الدين، ولي أمر مكة في سنوات متفرقة، وانهزم أمام أخيه حميضة سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م (ن.م.س، ج٨/ص٧٩ ـ ص٨٠).

(٤) عطيفة بن أبي نمي، يلقب سيف الدين، ولي أمر مكة نحو خمس عشر سنة مستقلاً بها وفي بعضها، وشريكاً لأخيه رميثة في بعضها، وكان موصوفاً بالشجاعة المفرطة، قدم القاهرة، وألزم بالإقامة بها حتى توفي سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م (الفاسي : العقد الثمين ، ج٦/ص٩٥ ـ ص١٠٠).

(٥) حميضة بن أبي نمي، يلقب عزالدين، ولي أمر مكة إحدى عشرة سنة ونصف سنة أو أزيد في أربع مرات، منهما مرتان شريكاً لأخيه رميثة، ومرتان مستقلاً بها، وقتل سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، (ن.م.س، ج٤/ص٢٣٢ ـ ص٢٤٥).

(٦) رميثة بن أبي نمي، يكنى أبا عرادة، ويلقب أسد الدين، ولي أمر مكة ثلاثين سنة أو أكثر في سبع مرات، مستقلاً بذلك أربع عشرة سنة ونصف، وشريكاً لأخيه حميضة مرتين منهما، مجمولها نحو عشر سنين، وشريكاً لعطيفة خمس سنين وأزيد، توفي سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م، (الفاسي: العقد الثمين، ج٤/ص٤٠٣ ـ ص٤١٧، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢/ص١١١).

سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م[١] حتى سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م، حيث خلص الأمر إلى رميثة الذي اعتزل الحكم سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م[٢] وسلم الأمر لولديه عجلان[٣] وثقبة[٤] اللذين تبادلا الإمارة حتى سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م حيث دب الصراع والمنافسة بينهما[٥]، فاستعان عجلان بمصر[٦]، بينما استنجد ثقبة باليمن[٧]، وظل الصراع بينهما مستمراً حتى وفاة ثقبة في سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م[٨] فأنفرد عجلان وابنه أحمد[٩] بالأمر بعد موافقة سلطان

---

(١) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٣٢.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج٤/ص٤١٦.

(٣) عجلان بن رميثة بن أبي نمى، ولي أمر مكة نحو ثلاثين سنة، مستقلاً بها مدة، وشريكاً لأخيه ثقبة مدة أخرى، وشريكاً لإبنه أحمد مدة، وكان مكرماً لأهل السنة ذا عقل مستنير ورأي ودهاء، وتوفي سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م، (الفاسي: العقد الثمين، ج٦/ص٥٨ ـ ص٧١، العز بن فهد، عبدالعزيز بن عمر: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم شلتوت، مطبوعات مركزالبحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، الطبعة الأولى، (مكة، جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م)، ج٢، ص٥٨ ـ ص٧١.

(٤) ثقبة بن رميثة بن أبي نمى، يلقب أسد الدين، ولي أمر مكة عدة سنين، وكانت له عدة مواقف سيئة مع أمراء الحج والجلاب في جدة، وكان كثير الرعاية للزيدية، موصوفاً بالكرم والشجاعة، وتوفي سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م بالجديد (الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٣٩٥ ـ ص٣٩٩).

(٥) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٤١.

(٦) الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٣٩٦، ج٦/ص٦٢، المقريزي: السلوك، ج٣/٢:ص٨٢٠.

(٧) الخزرجي، علي بن الحسن: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق، محمد بسيوني عسل، (مصر، مطبعة الهلال، ١٣٢٩هـ/١٩١١م)، ج٢/ص٨٤، المقريزي، أحمد بن علي: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق، جمال الدين الشيال، (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٥٥م)، ص١١٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠/ص٢٢٦.

(٨) الفاسي: العقد الثمين، ج٦/ص٦٧ ـ ص٦٨، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٩١.

(٩) أحمد بن عجلان بن رميثة، يلقب شهاب الدين، ولي أمر مكة شريكاً لأبيه ومستقلاً بها، ثم شريكاً لإبنه محمد، ستاً وعشرين سنة، وكان أعدل الأمراء وأحسنهم، مكرماً للتجار، محبوباً من السلاطين والأمراء من خارج الحجاز، توفي سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م وأسف الناس على وفاته، (الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٨٧ ـ ص ٩٧).

المماليك حتى سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م، وفي تلك السنة اعتزل عجلان الحكم، وتنازل عنه لابنه أحمد مقابل مبلغ من المال وأن يبقى اسمه في الخطبة.(١) فوافق السلطان المملوكي شعبان(٢) على هذا التغيير(٣)، حرصاً على السلام وازدهار التجارة وتشجيعها في البحر الأحمر، وظل حاكماً حتى وفاته سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م.(٤)

وهكذا شَغُل أبو نمي ثم أولاده من بعده سلاطين مصر في خلافاتهم، مما جعلهم يرجحون كفة أمير على آخر، وبذلك ازداد ضعف نفوذ الرسوليين، وانقطع محملهم نحو ٦٠ سنة إلى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م(٥)، ثم عاد وانقطع من سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م إلى سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م.(٦)

وقد شهدت مكة استقراراً سياسياً خلال القرن التاسع، وبداية القرن العاشر الهجريين في عهد حسن بن عجلان(٧)، الذي اتبع سياسة حذره مع دولة المماليك، إذ

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٩٠، ج٦/ص١٦٩، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣١٨.

(٢) هو الملك الأشرف شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، ولي السلطنة بمصر سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م، واستمرت سلطنته حتى قتل سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م (المقريزي: السلوك، ج٣/١: ص٨٣ ـ ص٢٨٢).

(٣) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٢٠.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢/ص٢٠٦، الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج٢/ص١٨٧.

(٥) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٣٢، وقد ذكر ابن فهد أن انقطاعه دام ٨٠ عاماً، بينما يذكر في حوادث سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م قدوم المحمل اليمني، ج٣/ص١٧٠، الفاسي: شفاء الغرام، ج٢/ص٢٤٤.

(٦) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٤٠٨.

(٧) حسن بن عجلان بن رميثة، يلقب بدر الدين، ولد سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣م بمكة ونشأ بها وتولى أمرها سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م، ويعد من أفاضل الأمراء الذين تولوا أمر مكة، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٢٩هـ/١٤٣٥م، (الفاسي: العقد الثمين، ج٢/ص٨٦ ـ ص١٥٦، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٩٥، العز بن فهد: غاية المرام، ج٢/ص٣٥٤، السخاوي: محمد بن عبدالرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، بدون ت)، ج٣/ص١٠٣ ـ ص١٠٤.

أيقن أن السلطان الناصر فرج بن برقوق(١) لم يكن أقل حرصاً ممن سبقه على استمرار السيطرة المملوكية على الحجاز(٢)، وقد بلغ من الجاه والقوة أن حاول غزو اليمن سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م(٣)، وكذلك شهدت مكة استقراراً نسبياً أيضاً في عهد أولاده من بعده، وخاصة إبنه بركات(٤) الذي تمتعت مكة في أيامه بالطمأنينة والرخاء والأمن.(٥)

---

(١) الناصر فرج بن الظاهر برقوق، تولى السلطنة في صبيحة وفاة والده، وذلك سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م، وقتل في سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م، (المقريزي: السلوك، ج٣/٣: ص٩٥٩، ج٤/١: ص٣ - ص٢٢٨، ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم شلتوت، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، (مكة، جامعة أم القرى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ج٢/ص٥٢٠، السخاوي: الضوء اللامع، ج٦/ص١٦٨).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٨٠.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٤/ص١٠٦ - ص١٠٧، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٤٦٩، الجزيري، عبدالقادر بن محمد: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، أعده للنشر حمد الجاسر، (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ج١/ص٦٩٠ - ص ٦٩١.

(٤) بركات بن حسن بن عجلان، ولد سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م، ولي أمر مكة من غير شريك بعد والده ستاً وعشرين سنة، وفي حياته بتخليتها له نحو أربع سنين أو خمس، وفي بعضها شاركه أخوه إبراهيم وشريكاً لأخيه أحمد نحو ثمان سنين، وكان سياسياً، شجاعاً، عارفاً بالأمور، ذا ثروة، وله مآثر كثيرة بمكة، وتوفي سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م، أنظرمصادر ترجمته في (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥/ص٣٧٩، النجم بن فهد، عمر بن محمد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق عبدالكريم الباز، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، الطبعة الأولى، (مكة، جامعة أم القرى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج٤/ص٢٧٢، السخاوي، محمد بن عبدالرحمن: التبر المسبوك في ذيل السلوك، (القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، بدون ت)، ص١٨٤.

(٥) السخاوي : الضوء اللامع، ج٣/ص١٣.

ثم حفيده محمد بن بركات[1] الذي استقر في حكم مكة قرابة ٤٤ عاماً من سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م إلى سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٧م وهي أطول فترة تولاها أمير مكة بمفرده دون انقطاع، ولم يحدث فيها اضطرابات ولا عزل، وهذه الفترة تعتبر فترة استقرار ذهبية للحالة السياسية في مكة، بعد أن كانت تروعها كثرة الخلافات بين الأمراء.

وفي عهده دخلت معظم بلاد الحجاز تحت حكمه بسبب الحملات[2] التي كان يقوم بها بين حين وآخر، مما جعل السلطان قايتباي[3] يمنحه أحقية توليه جميع المناصب في الحجاز في أوائل سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م.[4]

---

(١) محمد بركات بن حسن بن عجلان، ولد سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م، ويعد من أشهر الأمراء الذي تولوا أمر مكة، واتصف بالأدب والتواضع والعقل والفهم، توفي سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٧م، النجم بن فهد، عمر بن محمد، الدر الكمين بذيل العقد الثمين، في تاريخ البلد الأمين، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ميكروفيلم رقم ٢٥١، تاريخ عن مخطوط مكتبة رضا أمبور بالهند رقم ٣٦١٢، ورقة ١٩ب، العز بن فهد: غاية المرام، ج٢/ص٥٠٦، السخاوي: الضوء اللامع، ج٧/ص١٥٤.

(٢) النجم بن فهد: الدر ا لكمين، ورقة ١٩ب ـ ورقة ٢٠أ.

(٣) قايتباي المحمودي الأشرفي الظاهري، مكث في الحكم قرابة ثلاثين عاماً، وترتيبه الحادي والأربعون من ملوك الترك، ولد سنة بضع وعشرين وثمانمائة، قدم مع تاجر اسمه محمد بن رستم في سنة ٨٣٩هـ فاشتراه الأشرف برسباي، ثم صار إلى الملك الظاهر، فاعتقه، واستمر يترقى من مرتبة إلى مرتبة، وتولى الحكم سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، وتوفي سنة ٩٠١هـ/١٤٩٥م، وله الكثيرمن المآثر بالحرمين، (العيدروسي، محي الدين عبدالقادر بن شيخ: تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، الطبعة الأولى، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص١٥ ـ ص ١٦.

(٤) العز بن فهد، عبدالعزيز بن عمر،: بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ميكروفيلم رقم (٧٣) تاريخ عن مخطوط مكتبة الحرم المكي، رقم (١) تاريخ، ورقة ١٠ب، غاية المرام، ج٢/ص٥٣٨.

وبما أن الصراع على الولاية في الحرمين الشريفين كان يتجدد بين حين وآخر طيلة فترة دراستنا، فإن العلماء كانوا كغيرهم من أهل الحرمين الشريفين عرضة للآثار السلبية المترتبة على ذلك، كذلك كان الحجاج ضحية المتخاصمين على الحكم فتنهب أموالهم وتزهق أرواحهم، دون أي ذنب اقترفوه.[1]

ومن أسوأ ما حدث فيها من فتن في هذه الحقبة ما وقع سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م بين الأشراف أبونمي وإدريس، وجماز[2] صاحب المدينة، وبين الأمير مبارز الدين بن برطاس[3]، سفكت فيها الدماء بالحجر من المسجد الحرام، وأسر فيها ابن برطاس.[4]

وفي سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م وقعت بين الحجاج وأهل مكة فتنة، شهرت فيها من السيوف نحو عشرة آلاف سيف بالمسجد الحرام، وقتل فيها من الفريقين نحو أربعين رجلاً.[5]

---

(١) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٢٠، وأنظر كذلك، ج٣/ص٢٥٧، ج٣/ص٣٨٠، ج٣/ص٣٩٥.

(٢) جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا الحسيني، أمير المدينة المنورة، كان شجاعاً مهيباً سياسياً حازماً ذا رأي وهمة عالية، وتولى أمر المدينة أول الأمر مشاركاً لأخيه منيف، ثم استقل بها بعد ذلك، وتوفي سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م، (الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٤٣٦ ـ ص ٤٣٧).

(٣) علي بن الحسين بن برطاس الأمير مبارز الدين، أحد الأمراء الذين أرسلهم المظفر يوسف الرسولي صاحب اليمن إلى مكة، وقدَ تولى أمرها سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م بعد قتاله مع الأشراف، (الفاسي: العقد الثمين، ج٦/ص١٥٢ ـ ص ١٥٣، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٧٧.

(٤) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٧٧.

(٥) ن. م. س. ج٣/ص١٢٠.

وفي سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م ثارت فتنة بين التكاررة[١] والترك بالمسجد الحرام شهرت فيها السيوف في المسجد الحرام، وكان ملك التكرور موسى بن أبي بكر الأسود نازلاً بجانب رباط الخوزي، وأمر أصحابه بالكف عن القتال فكفوا عن ذلك.[٢]

وفي سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م وقعت فتنة بين الحجاج المصريين وأهل مكة، قتل فيها جماعة من الطرفين، وعرفت هذه السنة بالسنة المظلمة.[٣]

وفي سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م وقعت فتنة بين أمير الحاج المصري جقمق المؤيدي وجماعته وبين القواد العمرة[٤]، وحصل فيها قتال بينهما انتهكت فيها حرمة المسجد الحرام لما حصل فيها من القتال بالسلاح والخيل وإراقة الدماء فيه.[٥]

---

(١) التكاررة: نسبة إلى بلاد التكرور: وهي دولة ماليٍّ بفتح الميم وألف بعدها لام مشددة مفخمة وياء مثناه، وهي تقع في جنوب المغرب متصلة بالبحر المحيط، وحدودها من الغرب البحر المحيط، ومن الشرق بلاد البرنو، وفي الشمال جبال البربر، وفي الجنوب الهمج، وهي شديدة الحر قليلة الأقوات وأهلها طوال في غاية السواد، (القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥/ص٢٧١).

(٢) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٧٩.

(٣) ن . م.س، ج٣/ص٢٢٤.

(٤) القواد العمرة: وهم أتباع الأشراف من بني الحسن، وقد ورد هؤلاء القواد أول الأمر بالملاعبة والقواد الزبابعة، أما القواد العمرة فربما يرجعون إلى منصور بن عمر المكي الذي كان حياً سنة ٧٣٧هـ أحد أعيان القواد العمرة، (الفاسي: العقد الثمين، ج٧/ص٢٨٥)، وقد أورد الفاسي كثيراً منهم، العقد الثمين، ج٤/ص٦١٧، ج٤/ص٣٧٩، ج٧/ص١١١، ج٧/ص٣٦٥، ج٦/ص١٧٥، ج٤/ص٦١٧، كما ورد في بعض الأحيان القواد الحميضات والقواد ذوي عجلان، والقواد ذوي حسن، وهي نسبة إلى الأمراء حميضة وعجلان وحسن (النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٤١٠، ج٣/ص٥٤٢).

(٥) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥١٦ ـ ص٥١٧.

كما عادت الخلافات والحروب بعد وفاة محمد بن بركات، وذلك بين ابنيه بركات[١] وهزاع[٢] من جهة وأحمد الجازاني[٣] من جهة أخرى، فقد حصلت بينهما معارك عديدة كان أشدها ضرراً عندما دخل أحمد الجازاني مكة في أوائل سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٢م للمرة الثانية، وترك عسكره يعيشون في مكة ويفعلون أفعالاً قبيحة،حيث انتهكوا الحرمات، وصادروا أموال الأهالي والتجار.[٤]

أما المدينة المنورة، فقد كان أمراؤها من بني مهنا الحسينيون.[٥] ولم يكونوا على وفاق مع أمراء مكة، حيث حدثت بينهم عدة حروب[٦]، بسبب ميل أمرائهم إلى أحد الأطراف المتنازعة في مكة[٧]، بل وصل بهم الأمر إلى الإستيلاء على مكة بواسطة

---

(١) بركات بن محمد بن بركات، ولد سنة ٨٦١هـ/١٤٥٦م، واشترك مع أبيه، وتولى أمر مكة، من قبل السلطان الغوري، وتوفي سنة ٩٣١هـ/١٥٢٤م، أنظر ترجمته في (العصامي، عبدالملك: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، (القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م)، ج٤/ص٢٨١، دحلان، أحمد زيني، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، (القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص٤٦، أبو الخير، عبدالله مرداد: المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، تحقيق محمد سعيد العامودي، أحمد علي، الطبعة الثانية، (جدة، عالم المعرفة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦)، ص١٤٢.

(٢) هزاع بن محمد بن بركات، وقعت بينه وبين أخيه بركات كثير من الحروب، وتوفي سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م، (دحلان: خلاصة الكلام، ص٤٦ ـ ص٤٧).

(٣) أحمد بن محمد بن بركات الملقب بالجازاني، تولى أمر مكة سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م، وعانت مكة كثيراً من حروبه، توفي سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م، (دحلان، خلاصة الكلام، ص٤٨).

(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ١٣١ب.

(٥) السخاوي، محمد بن عبدالرحمن: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، عني بطبعه ونشره، أسعد طرابزوني الحسيني (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ج١/ص٧٨ ـ ص٧٩.

(٦) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢/ص١٩٩، العز بن فهد: غاية المرام، ج١/ص٥٥٢.

(٧) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٧٧ – ص ٩٩ – ص ١٠٣ .

أميرهم جماز بن شيحة بن هاشم، وذلك سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م الذي استعان بالسلطان المنصور بن قلاوون لتأديب أمير مكة أبو نمي.[١]

وفي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م تنازل جماز عن الإمارة لابنه منصور[٢]، وبعد وفاة والده وفد أخوه مقبل بن جماز على المظفر بيبرس[٣] بمصر، وأقنعه بإشراكه مع أخيه منصور في الإمارة فأجابه إلى ذلك، فضاق منصور من هذا الإجراء، فاستخلف ابنه كبيشاً[٤] مكانه وتوجه إلى مصر لعله يستطيع إقناع السلطان بتنحية أخيه، إلا أن مقبلاً[٥] استغل غيابه وعزل ابن أخيه كبيشاً فقام كبيش باللجوء إلى قبائل البادية وأثارهم ضد عمه، واستطاع أن يقتله سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، ثم أعاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون منصور بن جماز إلى الإمارة سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م، فاستمر بها إلى أن قتله ابن أخيه حذيفة بن جماز سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م[٦] فتولى الإمارة من بعده ابنه كبيش الذي قتل كذلك سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م على يد أبناء عمه مقبل انتقاماً لمقتل والدهم[٧]، ثم تنازع السلطة من

---

(١) النجم بن فهد : إتحاف الورى ، ج٣/ص١١٨، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٤٢٤.

(٢) أنظر ترجمته في ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٦٣، ومعظم تراجم أمراء المدينة وردت مختصرة في كتب التراجم.

(٣) ذكر القلقشندي أنه الظاهر بيبرس، والمعروف أن الظاهر بيبرس توفي سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، (صبح الأعشى، ج٤/ص٣٤٠)، ونقل عنه معظم الباحثين ذلك، والمظفر بيبرس المنصوري هو من مماليك المنصور قلاوون، وكان يحكم مصر في الفترة التي كان فيها الناصر محمد بن قلاوون معتزلاً الحكم، وتسلطن لمدة سنة واحدة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، (المقريزي: السلوك، ج٢/١: ص٤٥ - ص٥١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨/ص٢٣٢).

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة ، ج٣/ ص٢٦٢.

(٥) أنظر ترجمته، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤/ص٣٥٦.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٣٠٥، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤/ص٣٦٣.

(٧) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣/ص٢٦٢.

بعده طفيل[1] بن منصور بن جماز وودّى[2] بن جماز بن شيحة، وانتهى النزاع بينهما بوفاة ودّى سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢ م حيث استمر طفيل أميراً على المدينة حتى سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م فقبض عليه ونقل إلى القاهرة فأودع السجن إلى أن مات سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م.[3]

بعدها تولى إمارة المدينة عدة أمراء من أبناء جماز وأحفاده، وقعت فيها عدة فتن، منها فتنة سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م عندما رفض نعير بن منصور[4] أن ينصاع لأمر السلطان ويسلم المدينة[5] لجماز بن هبة[6] بن جماز، ثم كانت فتنة سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م الذي نهب فيها علي بن عطية[7] المدينة الشريفة، فغضب السلطان برقوق[8] وأفرج عن ثابت بن

---

(١) وصفه السخاوي بقوله: «كان خليقاً للملك، سلطاناً مهيباً، معظماً محبباً للرعية، عالي الهمة، كامل السؤدد، جم المناقب يوالي المجاورين، ويحسن إليهم»، التحفة اللطيفة، ج٢/ص٢٥٨، وأنظر ترجمته في: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢/ص٢٢٣.

(٢) أنظر ترجمته في: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤/ص٤٠٦.

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢/ص٢٢٣، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢/ص٢٥٨.

(٤) توفي سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م، (السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٤٢٨.

(٥) ن. م. س. ج١/ص٤٢٧ ـ ص ٤٢٨.

(٦) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٤٢٧ ـ ص ٤٢٨.

(٧)) ن. م.س. ج٣/ص٢٤١.

(٨) هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن أنص الجركسي، تولى سلطنة مصر في سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، ومات سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م، (الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٣٥٧، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١/ص٢٢١ ـ ص٣١٨، ج١٢/ص١٦٧، السخاوي: الضوء اللامع ، ج٣/ص١٠) .

نعير[1] وقلده إمارة المدينة.[2] واشتبك ابن نعير مع جماز بن هبة عندما هاجم المدينة المنورة في سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م[3]، ثم أنه في عام ٨١١هـ/١٤٠٨م عندما علم جماز بن هبة بولاية حسن بن عجلان للحجاز وعزله عن إمارة المدينة عمدهذا إلى نهب المسجد النبوي[4]، وفي سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م قبض على الشريف خشرم[5] لأنه لم يستطع دفع ما التزمه للسلطنة بمصر[6]، فأمر الأشرف برسباي[7] بالقبض عليه وعيّن بدلاً منه مانع بن علي[8]، وتولى المدينة بعد ذلك كثرة من صغار الأمراء كانوا دائماً أشبه بالدمى في يد سلاطين مصر، يضرب بعضهم ببعض، ثم يولى من يدفع أكثرلخزينة السلطنة بمصر، فإذا تساويا في المقدار المعروض طلب إليهما أن يقتتلا والإمارة لمن غلب.[9]

---

(١) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٣٩٦، الضوء اللامع، ج٣/ص٥٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٣٠٥، ابن حجر: أحمد بن علي: أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، تحقيق حسن حبشي، (القاهرة، مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٣٨٩هـ)، ج٢/ص٢٥٢.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣/٢: ص٧٩١.

(٤) ن.م.س، ج٤/١: ص٧٥ ـ ص٧٦.

(٥) قتل سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م، أنظر ترجمته في: السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢/ص١٨.

(٦) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٩٦، ج٢/ص١٨، المقريزي: السلوك، ج٤/٢: ص٧٥٦.

(٧) الملك الأشرف برسباي الدقماقي الظاهري، تولى السلطنة في سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م، وفي عهده فتحت قبرص، توفي سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤/ص٢٤٢، ج١٥/ص١١١، السخاوي: الضوء اللامع، ج٣/ص٨ ـ ص١٠، ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، (القاهرة، ١٩٦٠م ـ ١٩٦٣م)، ج٢/ص٨١.

(٨) المقريزي: السلوك: ج٤/٢: ص٧٥٦، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢/ص١٨.

(٩) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٤٢٨، السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص٥٠.

أما مدينة جدة، فهي الثغر العمومي للحجاز منها صادراته وإليها وارداته، وتزدهر التجارة فيه أيام الحج، وكانت جدة تتبع إدارياً لأمير مكة، وفيها كانت تؤخذ المكوس[١] من الحجاج والتجار القادمين بطريق البحر.[٢]

وقد بلغت جدة أوج ازدهارها في بداية القرن التاسع الهجري [٣]، ففي سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م وصلت مراكب التجار إلى جدة، وأخذ منهم أمير مكة حسن بن عجلان مكساً مقداره عشرة آلاف دينار[٤]، وظل أمير مكة يأخذ العشور[٥] من التجار حتى سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م حيث أرسل السلطان برسباي رجلاً من قبله ليحمل إليه نصيبه من المكوس، فبلغ ما حصله تلك السنة سبعين ألف دينار[٦]، ومنذ ذلك التاريخ أصبح السلطان شريكاً لأمير مكة في المكوس التي تؤخذ من التجار القادمين إلى جدة، واتخذ السلطان عدة إجراءات صارمة تنظم الأمور لهذا الميناء التجاري، وصار نظر[٧] جدة

---

(١) المكوس: جمع مكس، ومعناها في اللغة: الضريبة التي تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق أيام الجاهلية، كما تطلق على ما يأخذه المعشار، ويقال له الماكس، (المقريزي: السلوك، ج١/٢: ص٢٦٧ الهامش، وأنظر كذلك: المعجم الوسيط، الطبعة الثالثة، (القاهرة، مجمع اللغة العربية، بدون ت)، ج٢/ص٩٦، وانظر أنواع المكوس، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣/ص٥٣٦).

(٢) المقريزي: السلوك، ج١/١: ص٦٤، ج٤/٢: ص٦٨١ ـ ص٦٨٢، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٢٤ ـ ص٥٥٥، السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٩١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤/٢: ص٦٨١

(٤) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٦٥.

(٥) العشور: مفردها العشر: وهي الرسوم التي تؤخذ على الأموال، (أبويوسف، يعقوب بن إبراهيم: الخراج، تحقيق، محمد إبراهيم البنا، (دار الإصلاح للطبع والنشر، بدون ت)، ص٣١.

(٦) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٦٢٠ ـ ص٦٢١.

(٧) الناظر (نظر) ـ وهو من ينظر في الأموال وينفذ تصرفاتها ويرفع إليه حسابها لينظر فيه ويتأمله، فيمضي ما يمضي ويرد ما يرد، ثم هو يختلف باختلاف ما يضاف إليه كناظر الجيش وناظر الدواوين وناظر الأوقاف أو جهات البر، (القلقشندي: صبح الأعشى،ج٤/ص٢٩ ـ ص٣٥، ج٥/ص ٤٣٧)

وظيفة سلطانية يخلع على متوليها، ويتوجه في كل سنة إلى مكة وقت ورود المراكب إلى جدة ويأخذ ما على التجار من العشور ويحمله إلى خزينة السلطنة بمصر.[(١)]

كما تأثرت جدة بالصراع الدائر بين الأشراف، فقد نالها ما نال مكة، لأنها كانت تابعة لها، ومن ذلك ما حدث سنة ٧٨٩هـ/١٣٧٨م عندما جمع[(٢)] كبيش بن عجلان جماعة من البادية للإنتقام من أمير مكة الجديد المدعوم من السلطان، فأغار على جدة ونهبها وأخذ منها ثلاثة مراكب للتجار كانت متوجهة إلى مصر[(٣)]، وحدثت بين كبيش وأمير مكة عنان[(٤)] عدة مناوشات انتهت بمقتله.[(٥)] كما تعرضت جدة لغارات قبائل بني إبراهيم[(٦)] ما بين سنوات ٩٠٢هـ/١٤٩٦م، ٩١٣هـ/١٥٠٧م[(٧)] وذلك بمساعدة من

---

(١) الظاهري: زبدة الممالك، ص١٤، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٦٢١.

(٢) كبيش بن عجلان بن رميثة، يكنى أبا الفوز، كان ينوب في إمرة مكة عن أبيه وأخيه أحمد، ومشهوراً بوقار رأيه وشهامته وكفائته، قتل سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م، (الفاسي: العقد الثمين، ج٧/ص٨٥ ـ ص٩٠).

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٧/ص٨٨، ابن حجر: أنباء الغمر، ج٢/ص٢٥٠ ـ ص٢٥١، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٦١ ـ ص٣٦٢.

(٤) عنان بن مغامس بن رميثة، يلقب بزين الدين، ولي أمر مكة مرتين ومجموعها ثلاث سنوات، وكان كثير الشجاعة والكرم، عالي الهمة، قليل الحظ في الإمرة، توفي سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م، (الفاسي: العقد الثمين، ج٦/ص٤٣٠ ـ ص٤٤١).

(٥) ابن حجر: أنباء الغمر، ج٢/ص٢٥١.

(٦) أختلف في نسب هذه القبيلة، فقد ذكر كحالة أنهم من الأشراف من سلالة السبطين الحسن والحسين، (معجم قبائل العرب، ج١/ص٢)، بينما يذكر البلادي: أنهم بطن من بني مالك من جهينة كان لهم خطر قبل القرن العاشر الهجري، وديارهم ينبع النخل وما حولها، (معجم قبائل الحجاز، (مكة، دار مكة، ١٣٩٨هـ/١٣٩٩م)، ص١١ ـ ص١٢، قلب الحجاز، بحوث جغرافية وتاريخية وأدبية، الطبعة الأولى، (مكة، دار مكة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص١٦٥، والأخير هو الأرجح.

(٧) أنظر حوادث هذه السنوات في: العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ٩٢ب ـ ورقة ١٣٧ب.

أمير ينبع يحيى بن سبع وأمير خليص مالك بن نويرة، إذ قتلت الأهالي ونهبت الأموال، كما قتلت الحجاج وسلبت قوافلهم[١]، مما جعل السلطان الغوري[٢] يرسل الحملات إلى هذه القبائل للقضاء عليها.[٣] كما قام أولاً ببناء أبراج لمدينة جدة سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م[٤]، ثم قام ببناء سور لها سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م وانتهى المماليك من بنائه سنة ٩١٧هـ/١٥١١م[٥] الذي كان له دور كبير في رد هجوم البرتغاليين سنة ٩٤٨هـ/١٥٤١م أي بعد سقوط دولة المماليك.[٦]

أما مدينة ينبع فقد كانت بيد الأشراف الحسنيين من بني قتادة، وهي تسمى نيابة ولاتسمى إمارة تصغيراً لشأنها عن مكة والمدينة[٧]، وكانت المكوس التي تفرض على المراكب القادمة إليها تؤول إلى أميرها.[٨]

---

(١) دحلان: خلاصة الكلام، ص٤٧.

(٢) قانصوه الغوري: آخر السلاطين المماليك، فقد في حرب السلطان سليم العثماني ، ولم يظهر له خبر، (العيدروسي: النور السافر، ص١٠٠) وقيل أنه قتل سنة ٩٢٢هـ.

(٣) الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة، ج١/ص٧٩١، ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ص٥٤، السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص٥٣ ـ ص٥٤.

(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ١٦١أ.

(٥) العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ٢٠١ب، ورقة ٢٠٢أ، النهر والي ، قطب الدين المكي الحنفي: الأعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص٢٢٥، ابن فرج، عبدالقادر بن فرج بن أحمد الشافعي، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة، تحقيق أحمد عمر الزيلعي، ريكس سميث، (الرياض، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص٢٨ ـ ص٣٠، الأنصاري، عبدالقدوس: تاريخ مدينة جدة، الطبعة الثالثة، (القاهرة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص٢٩٨.

(٦) الأنصاري: تاريخ جدة، ص٧٠، السليمان، العلاقات الحجازية المصرية ، ص٧٠.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٨٩، ج١٢/ص٢٥٧.

(٨) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١٦.

وقد تعرضت ينبع كثيراً للفتن والقلاقل شأنها شأن مكة والمدينة، حيث كانت تابعة إدارياً لأمير مكة[١]، ومنها ذلك الدمار الهائل الذي أحدثه الخلاف على الإمارة بين الشريف مقبل[٢] الحسني وابن أخيه عقيل بن وبير الحسني[٣]، وقد تدخل أمير مكة حسن بن عجلان في هذا الصراع سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢١ م[٤] وسنة ٨٢٦هـ/١٤٢٢م[٥]، كما تدخل أمير الحاج المصري قرقماس[٦]، حيث سهل له الأمر حين قدومه إلى سلطان مصر بأن يكون مقبل شريكاً لابن عمه عقيل بن وبير.[٧]

وفي سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م توفي الشريف دراج[٨] أمير ينبع، فحصل نزاع على الإمارة بين أبنائه وبين أبناء الشريف سبع، ومنهم يحيى بن سبع الذي طالب بالأمارة، ولم يلب طلبه في أول الأمر، فقطع طريق الحجاج بعجرود[٩]، ومنع عنهم الماء، فاضطر

---

(١) الجاسر: بلاد ينبع، ص٣٢ ـ ص٦٧.

(٢) مقبل بن مخبار، توفي سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠/ص١٦٧).

(٣) عقيل بن وبير بن مخبار بن مقبل الحسني، توفي سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٠م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج٥/ص١٤٩) .

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج٤/ص١٤٢، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٨٦.

(٥) الفاسي: العقد الثمين. ج٤/ص١٤٤، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٩٢

(٦) قرقماس الشعباني الظاهري، برقوق ثم الناصري، ويعرف بقرقماس، أهرام ضاع يعني جبل الأهرام، لتكبره، توفي سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج٦/ص٢١٩).

(٧) الفاسي: العقد الثمين، ج٤/ص١٤٧، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٩٦.

(٨) دراج بن معزي الحسني: أمير ينبع، استقر في أواخر سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م، عقب أميرها سبع نيابة عن صاحب الحجاز حين فوض إليه الأمر، (السخاوي: الضوء اللامع، ج٣/ص٢١٧).

(٩) عجرود: منزل في طريق الحاج المصري، وهي إلى الغرب من السويس على مسافة ٢٠ كيلو متراً، بكر، سيد عبدالمجيد: الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، الطبعة الأولى، (جدة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص١٠٦.

السلطان إلى تأميره على ينبع سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م[١]، ولكنه أضمر الحقد في نفسه، وقام بضروب من العبث والفساد والقلاقل، حتى أرسل إليه السلطان الغوري قوة هزمته سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م.[٢] ثم تبعتها قوة أخرى سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م[٣] أنزلت بابن سبع وبجماعته هزيمة ثانية كانت أشد من الأولى، ولم تفق ينبع من هذه الكارثة حتى سقطت الدولة المملوكية سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م - ٩٢٣هـ/١٥١٧م).[٤]

أما الطائف فإن المصادر لاتسعفنا في الحديث عنها من الناحية السياسية لندرة المادة التاريخية، حيث ركزت المصادر الأولية على مكة والمدينة، دون الإهتمام بالأطراف أو الأقاليم البعيدة، وكل ما نعرفه عنها سياسياً، أنها كانت خاضعة في معظم الأحوال لحكم الأشراف في مكة.[٥] ويعيَّن نوابها من قبل أمير مكة[٦]، وكان أهلها يؤدون الجباية لأمير مكة، ومثال ذلك:

يذكر لنا ابن فهد في حوادث سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م أن أمير مكة حسن بن عجلان توجه إلى الطائف وخرّب أماكن فيها، وسبب ذلك توقف أهل هذه الأماكن عن تسليم ما قرره عليهم من الجباية.[٧]

---

(١) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية ، ص١٩١.

(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ١٦٠أ - ورقة ١٦٠ب.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ص٩٥، الجزيري: الدرر الفرائد، ج١/ص٧٩١، الجاسر: بلاد ينبع، ص٥٨ - ٥٩، السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٩١.

(٤) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٩١.

(٥) دائرة المعارف ا لإسلامية، (بيروت، دار المعرفة، بدون ت)، ج١٥/ص٥٧.

(٦) الفاسي، العقد الثمين، ج٧/ص٤٦، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٢، العز بن فهد: غاية المرام، ج١/ص٥٥٨.

(٧) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٥٧ - ص ٥٥٨.

ب ـ الحياة الإجتماعية:

كان المجتمع الحجازي في عصر المماليك يتألف من طبقات ثلاث:

أ ـ الأشراف: وهم الأمراء أحفاد قتادة بن إدريس الحسني في مكة وينبع.[1] وأحفاد جماز بن شيحة الحسيني في المدينة المنورة.[2]

ب ـ القواد: وهم من أتباع أمراء مكة وأكثرهم من بني الحسن أشراف مكة، ويعبّر عن أكايرهم بالقواد[3]، مثل القواد العمرة والحميضات وغيرهم، وكانوا قوة يحسب حسابها في مكة، تستطيع ترجيح كفة أحد الأطراف المتنازعة على الإمرة.[4]

جـ ـ أما الطبقة الثالثة فتكون بقية فئات المجتمع من علماء وطلاب علم وتجار وحرفيين وفلاحين وبدو رحل ... إلخ، ومن هؤلاء السكان المجاورون الذي وفدوا من جميع أنحاء العالم الإسلامي بقصد المجاورة والإقامة في الحرمين الشريفين، وصاروا بعد ذلك جزءاً لايتجزأ من المجتمع الحجازي، أدى دوره في جميع المجالات السياسية والإقتصادية والإجتماعية، وبرز بشكل خاص في النواحي العلمية.

تلك هي صفة المجتمع الحجازي، خليط من عدة جنسيات مميّز في تركيبه الإجتماعي من بين جميع مدن العالم بسبب وجود الحرمين الشريفين.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٢٧، العز بن فهد: غاية المرام، ج١/ص٥٦٨.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٣٠٤ ـ ص٣٠٥.

(٣) ن. م. س. ج٤/ص٢٨١.

(٤) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٧١، ج٣/ص٢٩١، ج٣/ص٣٥٧.

ولعل أفضل المعلومات التي تفيدنا لكيفية الحياة الإجتماعية في مجتمع الحجاز نجدها في كتب الرحالة المسلمين الذين عايشوا أهل الحجاز في ذلك العصر، أمثال: ابن جبير، وابن بطوطة، والعبدري، وغيرهم، فقد زار مكة في العصر المملوكي سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م الرحالة الشهير ابن بطوطة وأعطانا وصفاً مفصلاً عن العادات الإجتماعية في مكة المكرمة، نستخلص منها.، اهتمام أهلها البالغ بالتأنق في الملبس والمأكل والمشرب، ويشير إلى أن ملابسهم دائماً نظيفة ناصعة البياض، كما كانوا يقومون بإكرام الضعفاء والمنقطعين بتقديم الطعام إليهم، ووصف نساء مكة بأنهن فائقات الحسن بارعات الجمال، يقصدن الطواف بالبيت الحرام كل ليلة جمعة.(١)

وذكر أن أهل مكة لايأكلون في اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر، ويقتصرون عليها إلى مثل ذلك الوقت، ومن أراد الأكل في سائر النهار أكل التمر، ولذلك صحت أبدانهم وقلّت فيهم الأمراض والعاهات.(٢)

ومن عادات أهل مكة أن تضرب الطبول على باب أميرها عند صلاة المغرب من كل يوم.(٣)، وقد ذكر ابن جبير وابن بطوطة كثيراً من عادات أهل مكة واحتفالاتهم الدينية في القرنين السابع والثامن الهجريين، منها احتفالاتهم في استهلال الشهور(٤)،

---

(١) أبو عبدالله محمد بن عبدالله: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (القاهرة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م)، ص١٤٣.

(٢) ن. م. س. ص١٤٥.

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٤٢.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص١٠١ ـ ص١٠٢، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٥٥.

وعاداتهم إذا هلّ هلال رجب[1]، وعمرة رجب[2]، وليلة النصف من شعبان[3]، وشهر رمضان[4]، وشهر شوال[5]، وشهر ذي الحجة[6]، إذ كانت تدق فيها الطبول، وتوقد فيها المشاعل في المسجد الحرام، وتقام فيها الأعياد.

وكانت حياتهم مستقرة هادئة مليئة بالبهجة والسرور، إلا أن غمامات الحزن والخوف والرعب، كانت أحياناً تعكر صفو هذه المدينة، بسبب خلافات أمرائها المستمرة، وبسبب أزمنة القحط والسيول والأوبئة، كما سنرى في الحالة الإقتصادية.

أما أهم المنشآت الإجتماعية التي قام بتعميرها سلاطين المماليك وأمراؤهم وغيرهم من الحكام المسلمين في الحجاز، فهي الإكثار من تعمير العيون والأسبلة والآبار، لتوفير الماء للسكان والحجاج، فقد أجرى ا لأمير جوبان[7] نائب السلطنة بالعراق من قبل

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١٠٦، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٥٧.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٠٨، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٥٨.

((٣)) ابن جبير: الرحلة، ص١١٣،ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٦١.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص١١٤، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٦٣.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص١١٥، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٦٤

(٦) ابن جبير: الرحلة، ص١١٥، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٦٤.

(٧) جوبان بن تدوان، نائب السلطنة بالعراقيين، وتولى ذلك نيابة عن السلطان أبي سعيد بن خربندا، ثم تغير عليه السلطان فقتله سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، وله الكثير من المآثر بالحرمين، (أنظرترجمته في: الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٤٤٦ ـ ص ٤٤٧، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١/ص٥٤١، ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١/ص٢٥٣، النجوم الزاهرة،، ج٩/ص٢٧٢ ـ ص ٢٧٣، السخاوي: ا لضوء اللامع، ج٣/ص٨١).

السلطان أبي سعيد بن خربندا[١] ملك التتار، عين بازان في سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م وعمّ نفعها على جميع الناس لأنهم كانوا في جهد ومشقة لقلة الماء، وصرف على عمارتها مائة ألف درهم[٢]، وفي سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م بعث بركة بن عبدالله العثماني[٣] أميراً يقال له سودون باشة لعمارة عين بازان[٤]، كما عمرها أمير مكة حسن بن عجلان سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م، واستمر جريانها إلى سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م[٥]، فقل ماؤها وعمّرها الملك المؤيد أبوالنصر[٦]، حينما ندب القائد علاء الدين[٧] لإصلاحها، فعمرها سنتي ٨٢١هـ/١٤١٨م و ٨٢٢هـ/١٤١٩م.[٨]

---

(١) أبو سعيد بن خربندا بن أرغون بن ابغا بن هولاكو، ملك التتار صاحب العراق، والجزيرة وخراسان والروم، أقام في الملك عشرين سنة، وحسن إسلامه، توفي سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م، (ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١/ص٥٠١).

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص٥٥٤، المقريزي: السلوك، ج٢/١: ص٢٧٤ ـ ص٢٧٥، النجم ابن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٨١، وأضاف خمسين ألف درهم على المائة.

(٣) هو الأمير زين الدين، رأس نوبة النوب بالقاهرة، وله مآثر بمكة، قتل سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م، (الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٣٦١ ـ ص٣٦٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١/ص٢٠٤) .

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٣٦٢، وتسمى أيضاً بعين حنين، (النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٦٠).

(٥) الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص٥٥٥.

(٦) السلطان الملك المؤيد أبو النصر سيف الدين شيخ بن عبدالله المحمودي الظاهري، رابع السلاطين السلاجقة، والثامن والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، تولى السلطنة بعد عزل الخليفة المستعين بالله أبي الفضل العباسي من السلطنة في سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م، وتوفي سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م، (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣/ص١ ـ ص١٠٩).

(٧) علاء الدين بن اللفت، ولي الوزارة بالديار المصرية، وشد الدواوين مراراً، توفي سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج١١/ص١٦٢ ـ ص ١٦٣).

(٨) الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص١٢٧، شفاء الغرام، ج١/ص٥٥٥ ـ ص ٥٥٦، الزهور المقتطفة ، ورقة ٧٢، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٦٠ ـ ص ٥٦٦.

ومن العيون التي أجريت بمكة عين أجراها الملك الناصر محمد بن قلاوون في مجرى عين بازان، وتعرف بعين جبل ثقبة، وذلك في سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م[١]، وتبعه في ذلك أبناؤه من بعده فقام نائب السلطنة أيام الصالح بن الناصر[٢] بتعمير بركة السلم سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م وعمر القنوات التي يصل بها الماء إليها بطريق منى[٣]، وعمَّر كذلك عين أجراها من منى إلى بركة السلم بطريق منى.[٤]

كما قام الكثير من هؤلاء السلاطين والأمراء بإنشاء الأسبلة في الأماكن المقدسة لسقاية الناس، وأهم هذه الأسبلة :

١ ـ سبيل الزنجيلي: ويقع خارج باب الشبيكة في جهة طريق التنعيم، على يمين المار إلى العمرة، وقد عمَّره الأمير فخر الدين المعروف بالزنجيلي[٥] نائب عدن للسلطان صلاح الدين الأيوبي، وذلك في سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م، وقد عمَّره من بعده تاجر حضرمي من أهل عدن، ويعرف بأبي راشد[٦]، وعمَّره بعده الشهاب بركوت المكين.[٧]

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص٥٥٦ ـ ٥٥٧، العقد الثمين، ج١/ص١٢٧.

(٢) هو الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون، تسلطن بعد خلع أخيه الملك الناصر أحمد في سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م، واستمر في السلطنة حتى سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م، وكان مشكور السيرة، (ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١/ص٣٨٠، ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١/ص١٢٩، النجوم الزاهرة، ج١٠/ص ٧٨ ـ ص ١٤٢).

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص٥٤٢، العقد الثمين، ج١/ص١٢٧.

(٤) الفاسي: شفاء الغرم، ج١/ص٥٥٧.

(٥) سيأتي الحديث عنه في المدارس.

(٦) الفاسي: العقد الثمين، ج٦/ص٣٤.

(٧) بركوت شهاب الدين، عتيق سعيد المكيني، اليمني، كان حبشياً كثير الأفضال محباً لأهل العلم، وأهل الخير، كثير البر لهم والتلطف بهم، لقي حظاً عظيماً من الدنيا، وتنقلت به الأحوال، وبنى بعدن أماكن عديدة، ثم تحول إلى مكة وسكنها، وبنى بها داراً عظيمة، وله الكثير من الآثار في مكة، توفي بعدن سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج٣/ص١٥).

٢ ـ سبيل الملك المؤيد شيخ صاحب مصر الذي يقع بالقرب من بئر زمزم، وقد انتهى من عمارته سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م وهو على شكل بيت مربع له ثلاثة شبابيك، تحت كل شباك حوض، وفيه بركة حاملة للماء.[١]

٣ ـ سبيل الست، وهو بطريق منى، وقد عمرته زهراء بنت السلطان محمد بن قلاوون أثناء قدومها للحج سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م.[٢]

٤ ـ سبيل بالمعلاة للقاضي الأشرف زين الدين عبدالباسط[٣] ناظر الجيوش المنصورة، وقد أنشأه سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٢م[٤]، وقد ذكر الفاسي كثيراً من هذه السبل التي قام بإنشائها السلاطين والأمراء وغيرهم.

هذا وقد قام كثيرٌ من السلاطين والأمراء وغيرهم، بأعمال البر والإصلاحات والعمائر في الحرم المكي الشريف، بالإضافة إلى كثير من المؤسسات الإجتماعية التي

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص٤٠٣ ـ ص٤٠٤.

(٢) ن. م. س. ج١/ص٥٤٠، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٨٦.

(٣) زين الدين عبدالباسط بن خليل الدمشقي القاهري، ولد سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م بدمشق، وله المآثر والقرب المنتشرة بأقطار الأرض ما يفوق الوصف، وأصلح كثيراً من مسالك الحجاز، وقد أعطاه السلطان المؤيد نظر الخزانة، وحصل له قربة عند سلاطين المماليك، وكان ناظر الجيوش أيام الظاهر ططر، والأشرف برسباي، وابنه العزيز، وجقمق، من سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م حتى سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج٤/ص٢٤ ـ ص٢٥)، وقد ذكر السليمان، أن الزيني عبدالباسط كان ناظر الجيوش في دولة الناصر محمد، وأنه أنشأ سبيلاً بالمعلاة لمولاه، كما قام بإنشاء سبيل بالمعلاة باسم أخت الناصر محمد سنة ٧٦١هـ، (العلاقات الحجازية المصرية، ص٢١٧)، وقد جانبه الصواب في ذلك كما هو واضح من ترجمة الزيني عبدالباسط، ويبدو أن أسلوب الفاسي في إيراده للأسبلة جعله يقع في ذلك، (العقد الثمين، ج١/ص١٢٤).

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص٥٣٩، كما ذكره في: العقد الثمين، ج١/ص١٢٤، ولم يذكر سنة الإنشاء.

أنشأها سلاطين المماليك وأمراؤهم مثل المدارس، والأربطة، والبيمارستانات، التي سيأتي الحديث عنها في ثنايا البحث.

أما المدينة المنورة فإن التركيب الإجتماعي فيها لايختلف عن مكة، فهي تضم جميع الجنسيات ولهم عادات وتقاليد حسنة منها:

استقبالهم للزوار من خارج المدينة، من غير سابقة معرفة بهم، وقد حدثنا عن ذلك الرحالة ابن رشيد[1] الذي زار المدينة سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، وقال: «وفي عشي يوم السبت الثاني والعشرين من ذي القعدة تلقانا قريب العصر أهل المدينة على ساكنها الصلاة والسلام مبشرين بالوصول إلى حضرة المصطفى الرسول، وجالبين من تمر المدينة ما يتحفون به القادمين ملتمسين رفدهم، وقد صنعوا عصياً في أطرافها أوعية صغار، فيجعلون فيها شيئاً من التمر ويناولونه إلى الركبان .. على حكم التحفة والهدية .. وقد رأيتهم يحنكون به الأطفال الصغار التماساً للبركة».[2] وقد أكد البتنوني[3] هذه العادة القديمة حين زيارته للمدينة.[4]

---

(١) هو محمد بن عمر بن محمد أبو عبدالله، محب الدين ابن رشيد الفهري السبتي، رحالة، عالم بالأدب، عارف بالتفسير والتاريخ، ولد بسبتة سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، رحل إلى مصر والشام والحرمين، وله الكثير من الكتب في النحو، توفي سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م، (ابن حجر : الدرر الكامنة، ج٤/ص١١١ ـ ص١١٢).

(٢) ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق، محمد الحبيب ابن الخوجة، الطبعة الأولى، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨)، ج٥/ص١٦.

(٣) هو محمد لبيب البتنوني، نسبة إلى «البتنون» من بلاد المنوفية بمصر، كاتب، فاضل، له اشتغال بالأدب والتاريخ، وحج بمعية الخديوي عباس باشا حلمي سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، وعمل كتابه «الرحلة الحجازية»، (البتنوني، محمد لبيب: الرحلة الحجازية، الطبعة الثالثة، (الطائف، مكتبة المعارف، بدون ت)، مقدمة الناشر، ص أ.

(٤) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص٢٦٠.

ولهم عادات دينية راسخة، فهم يتناولون إفطاراً خفيفاً عند المغرب في شهر رمضان بالمسجد النبوي فقراء وأغنياء، ثم ينصرفون إلى صلاة المغرب، ويعودون بعدها إلى بيوتهم ليفطروا الإفطار الثاني، ثم يعودون لصلاة العشاء والتراويح.[١]

أما صلاة العيد فيصليها بالمسجد النبوي أئمة الإمامية والشافعية والأحناف، إلا أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أصدر أمراً بعدم السماح لآل سنان[٢] من الإمامة بالصلاة في المسجد النبوي سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠م[٣]، ثم انتهت إمامتهم فعلياً من المدينة سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م بالتعاون بين الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون[٤] وأمير المدينة سعد بن ثابت بن جماز[٥]، الذي ضاق بسيطرة القضاة والأئمة الشيعة من آل سنان.[٦]

«ولأهل المدينة المنورة عادات وتقاليد في الولادة والزفاف والوفاة، فهم في الوفاة يتبعون أهل السنة، فإذا فاضت روح الميت لايرفع صوت ولايشق جيب».[٧]

أما مدينة جدة فإن موقعها الإستراتيجي المهم، ونموها المستمر خاصة في بداية القرن التاسع الهجري، أحدث فيها تغيرات مهمة في تركيبها الإجتماعي.

---

(١) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص٢٦١.

(٢) هو سنان بن عبدالوهاب بن غيلة بن محمد بن ابراهيم بن عبدالوهاب الحسيني ، أول أمراء المدينة من الشيعة ، وتبعه ذريته في القضاء والإمامه (السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٢ / ص ١٩٥ - ص ١٩٦) .

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣/ص١٤٩.

(٤) الناصر حسن بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، تولى السلطنة سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، حتى سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م، ثم أعيد سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، وبقي حتى سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م، (ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤/ص٢٣٦، ص٢٦٣، ص٢٩٠، وانظر كذلك : المقريزي : السلوك ، ج٢/٣: ص٧٤٥ ـ ٨٤٣).

(٥) سعد بن ثابت بن جماز بن شيحة، ولي أمر المدينة سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م، بعد طفيل بن منصور، أخمد كثير من البدع في الحرم النبوي الشريف، وابتدأ في عمل خندق للمدينة، ولكنه توفي سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م، (السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢/ص١٢٥ ـ ص١٢٦).

(٦) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢/ص١٢٥ ـ ص١٢٦.

(٧) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص٢٦١.

فقد تهيأت فيها فرص كثيرة للعمل شجعت على الإستقرار والإقامة بهذه المدينة التجارية، حيث كثر فيها الفرس والحضارم والهنود والبخاريين، حتى شكلوا ثلث سكانها تقريباً.[١]

أما ينبع فلا شك أن الصلة التجارية التي كانت بينها وبين موانيء مصر في ذلك العصر، جعلت أكثر سكانها من الأسر العربية التجارية، التي انتقلت من مصر ومن الصعيد بالذات واستوطنت ينبع[٢]، ونقلوا عاداتهم وتقاليدهم إلى هذه المدينة.

أما الطائف فإن سكانها كانوا من قبيلتي ثقيف وهوازن[٣]، وبعض قبيلتي قريش وهذيل[٤]، وبجيلة[٥]، والسراة وزيّهم في المأكل والملبس مثل أهل مكة.[٦]

وقد وصف ابن المجاور إحدى عاداتهم بقوله: «وللقوم عصبية عظيمة إذا مات بها أحد، لم يحمل جنازته إلا الشبان ... وهم يتداولون النعش ... وهم الذين يحفرون القبر».[٧]

---

(١) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص٩ - ص١٠.

(٢) حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص١٢٨ - ص١٣٠، السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٩٠.

(٣) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم: المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، (القاهرة، ١٩٦٠م)، ص٨٠.

(٤) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٢٥، ياقوت: معجم البلدان، ج٤/ص٩.

(٥) بجيلة: قبيلة عربية كبيرة، مواطنها سروات اليمن والحجاز من جنوب الطائف إلى تباله، ذكرهم ابن جبير في رحلته فقال: بجيلة إحدى قبائل السراة التي تفد إلى مكة في الحج بالميرة والخيرات، ثم اختفى اسم بجيلة القبيلة وبقي علماً على موضع جنوب الطائف على قرابة ١٢٠ كيلاً، في بلاد بني مالك، (البلادي: معجم قبائل الحجاز، ص٣٠ - ص٣١)، وقد ذكرها الفاسي، وقال: «قرية بالبادية حول الطائف» (شفاء الغرام، ج٢/ص٢٤٩).

(٦) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٢٥.

(٧) ن. م. س، ص٢٥.

كما وصف ابن بطوطة سكان بجيلة وزهران وغامد[1] بأنهم «فصحاء الألسن، لهم صدق نية، وحسن اعتقاد ... وهم شجعان أنجاد ولباسهم الجلود، وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم».[2]

جـ ـ الحياة الإقتصادية:

للحجاز بيئة خاصة ومميّزة اختلفت عن معظم بلدان الجزيرة العربية، فهو يجمع السهول، والجبال والمنخفضات، والحرات والأودية والصحاري كلها جنباً إلى جنب.

فمكة منخفضة وتحيط بها الجبال ويغلب عليها القيض والحرارة طوال العام تقريباً ما عدا فصل الشتاء وبجوارها الطائف مرتفعة فوق جبال السراة ومعتدلة الجو وهواءها عليل ونجد السهول ناحية البحر الأحمر، وهي فقيرة النبات، ثم تجد بعض المناطقَ قرب المدينة النبوية غنية بنباتاتها.

هذا التباين والإختلاف في البيئات في الحجاز جعلها مختلفة كذلك في الموارد، وبالتالي وقع اختلاف في الحرف العامة لدى سكانه.

وقد كان لقلة الموارد في مكة وعدم ملاءمتها للزراعة دور كبير في اتجاه أهلها إلى التجارة واعتمادهم عليها في معايشهم، كما أن هناك الكثير من القبائل التي توزعت في مختلف بلاد الحجاز وامتهنت الرعي والصيد والزراعة.

---

(١) غامد: قبيلة من عسير تحيط بها من الشمال الشلاوة، ومن الشرق شمران، ومن الجنوب بلقرن، ومن الغرب، زبيد وزهران، ومقر غامد الباحة، (كحالة: جغرافية شبه جزيرة العرب، ص٢١٧ الهامش).

(٢) تحفة النظار، ص١٦٠.

وكانت موارد مكة الرئيسية في العصر المملوكي تتركز في عدة مصادر منها:

١ ـ ما ينفقه الحجاج في مواسم الحج :

حيث يعد هذا المصدر مورداً مالياً اعتمدت عليه مكة في اقتصادها، وكان لسلاطين المماليك دور كبير في رواج موسم الحج، لما قدموه من مساعدة في تحسين طرق الحج وإقامة المرافق[١] من حفر الآبار وبناء المنازل والخانات وغير ذلك، تسهيلاً لقدوم الحجاج إلى مكة.[٢]

٢ ـ المكوس والجباية :

وهذا المورد خاص بأمراء مكة الذين كانوا يفرضونه على الحجاج والتجار والمناطق المجاورة لمكة، مثل الطائف وجدة ، لذلك، فقد قام كثير من سلاطين المماليك بمنع أمراء مكة من أخذ المكس من الحجاج والتجار، وتعويضهم بتقديم الهدايا والهبات والرواتب السنوية[٣]، كما قاموا بإسقاط المكس عن المأكولات التي كان يجلبها التجار والحجاج وأهالي المناطق المجاورة بمكة.[٤]

---

(١) لمزيد من التفصيل، انظر، جلال، آمنة حسين محمد: طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي، (رسالة دكتوراة بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، غير منشورة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

(٢) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٧٢.

(٣) الفاسي العقد الثمين، ج٤/ص٤١٧، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٩٣، ص٢٢٧، ص٣٠٣.

(٤) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٩٣، ص١٧٦، ص ٢٧٧.

٣ـ التجارة الداخلية والخارجية:

اعتمدت مكة في مصادرها الغذائية على ما يأتي به أهالي القرى المجاورة لها، خاصة وادي مَرّ[١]، ووادي نخلة[٢]، حيث تأتي منهما الفواكه والخضروات[٣]، كما كانت الطائف منذ القدم تمد مكة بالفواكه[٤]، وكذلك أهالي جبال السراة من غامد وزهران وبجيلة الذين يحملون معهم الحبوب والسمن والزبيب والزيت واللوز[٥]، بالإضافة إلى ما يزرع في مكة من حبوب وشعير وسلت[٦]، وجميعها يزرع على المطر.[٧]

---

(١) وادي مَرّ: بالفتح ثم التشديد، هو مر الظهران، موضع على مرحلة من مكة، له ذكر في الحديث، وبه عيون كثيرة، (ياقوت: معجم البلدان، ج٥/ص١٠٤)، ويسمى اليوم وادي فاطمة ويبعد عن مكة ٢٤ كيلو متراً، على جادة المدينة المنورة، (البلادي: معجم معالم الحجاز، (مكة، دار مكة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ج٨/ص١٠٠ ـ ص١٠٥).

(٢) وادي نخلة: نخلة الشامية أحد رافدي مرّ الظهران، ونخلة اسم لعدد من المواضع في الحجاز، (ياقوت، معجم البلدان، ج٥/ص٢٧٧، البلادي: معالم مكة التاريخية والأثرية، الطبعة الثانية، (مكة: دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص٢٥٨ ـ ص٢٥٩).

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص٩٧، ابن بطوطة، تحفة النظار، ص١٢٤، ص١٢٦.

(٤) الإصطخري: المسالك والممالك، ص٢٧٤، ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٩، ابن جبير: الرحلة ص١٢٢.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص٩٦ ـ ص٢٧٤، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٦٠.

(٦) السُلت: بضم السين، ضرب من الشعير، وقيل هو الشعير الحامض، وقال الليث السُلت شعير لاقشر له أجرد، كأنه الحنطة يكون بالغور والحجاز، (ابن منظور: لسان العرب، ج٢/ص٤٧).

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٥٣.

واعتمدت في مصادرها الخارجية من المواد الغذائية وغيرها من السلع على ما يأتيها من بلاد اليمن[١]، والهند[٢]، ومصر، وبلاد السودان والحبشة[٣]، وبلاد الأندلس والمغرب[٤]، وغيرها، سواء عن طريق البر أو البحر، لذلك صارت مكة سوقاً مزدهرة، وكان ما يجلب إليها يفوق عشر مدن من أمثالها في عدد السكان، فكل ما يحتاجه الحاج يجده فيها.[٥]

ومن الأسواق المنتظمة في مكة، سوق كان على طول الصفا والمروة، ذكره ابن جبير وغيره من الرحالة المسلمين، يباع فيه الحبوب واللحوم والتمر والسمن وسواها من الفواكه، وكان شديد الزحام، كما كان للبزازين والعطارين سوق عند باب بني شيبة[٦]، وكذلك أقيمت الأسواق المتنقلة في موسم الحج في منى وعرفات، وبيعت فيها جميع السلع والمواد الغذائية.[٧]

كما كانت ترد إلى مكة سلع عديدة ومتنوعة، ومن الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الأحجار الكريمة والألماس والرياش والفراش، بالإضافة إلى أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود، وأنواع البخور وغيرها من البضائع.[٨]

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢/ص٤٣٤، ص٤٤١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٨١.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢/ص٤٤٠، ص٤٤١، العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ٦٩ب.

(٤) ربيع: وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي، ص١٣٥.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص٩٧، البلوي، خالد بن عيسى: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق حسن السايح (المغرب، بدون ت)، ج١/ص٣٠٧.

(٦) ابن جبير: الرحلة، ص٨٥، العبدري، أبو عبدالله محمد بن محمد: الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، (الرباط، ١٩٦٨م)، ص١٧٦، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٣٦.

(٧) ابن جبير: الرحلة، ص١٦٠، العبدري: الرحلة المغربية، ص١٨٥.

(٨) ابن جبير: الرحلة، ص٩٧، البلوي: تاج المفرق، ج١/ص٣٠٧.

أما معاملات مكة المالية[1]، فكانت تجرى كمصر والشام بالدنانير والدراهم النقرة[2]، وتنوعت العملات فيها طوال العصر المملوكي، ومنها الدراهم الكاملية[3]، والدراهم المسعودية[4]، وفي بداية القرن التاسع الهجري، استعملت في مكة عملات أخرى منها الدراهم المؤيدية[5]، والدنانير الأفرنتية[6]، والدنانير الأفلورية[7]،

---

(١) أنظر لمزيد من التفصيل، أنظر: الزهراني، ضيف الله بن يحيى: أسعار المواد الغذائية بمكة المكرمة خلال الفترة (٦٤٨هـ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠م - ١٥١٧م)، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، (١٤١١هـ/١٩٩١م).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٨٠ - ص٢٨١، والدراهم: هي مايكون ثلثاها فضة وثلثها نحاس، تسك بدار الضرب السلطانية، ويكون منها دراهم صحاح، وقراضات مكسرة والعبرة في وزنها بالدرهم وهو معتبر بأربعة وعشرين قيراطاً، الكرملي، الأب انستاس ماري: النقود العربية وعلم النميات، رسائل في النقود للبلاذري والمقريزي والذهبي، (بيروت، لبنان، بدون ت)، ص١١٣.

(٣) الدراهم الكاملية، تنسب إلى السلطان الملك الكامل الأيوبي، (٦١٥هـ/١٢١٨م - ٦٣٦هـ/١٢٣٨م)، وهو يتكون من ثلثي فضة وثلث نحاس، وكان من المعاملات الرئيسية بمكة (القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٨٠).

(٤) الدراهم المسعودية: تنسب إلى ملك اليمن الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل محمد الأيوبي، (٦١٢هـ/١٢١٥م - ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، وهي من فضة خالصة، مربع الشكل، ويعادل في المعاملة المالية ثلث الدرهم الكاملي، وقد استمر التعامل بها في مكة حتى نهاية العصر المملوكي، (الفاسي: العقد الثمين، ج٧/ص٤٩٥، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٨٠، العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ٢٢أ، ورقة ٨٨أ، الزهراني: أسعار المواد الغذائية بمكة المكرمة، ص١٠٦).

(٥) الدراهم المؤيدية، تنسب إلى السلطان المملوكي المؤيد سيف الدين أبو النصر شيخ، (٨١٥هـ/١٤١٢م - ٨٢٤هـ/١٤٢١م)، أنظر النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٨٨.

(٦) الدينار الإفرنتي: عملة بندقية، أطلق عليها في أوربا لفظ دوكات، وعرفت في الشرق باسم (بندقي أو إفرنتي)، وقد تعاملت بها مكة من سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م، (المقريزي: السلوك، ج٢/١: ص٢٥٣، الفاسي: شفاء الغرام، ج٢/ص٤٣٩ - ص٤٤٠، الزهراني: أسعار المواد الغذائية، ص١٠٦).

(٧) الديناري الأفلوري: نسبة إلى فلورنسا بإيطاليا، وهو من النقود الذهبية التي تجلب من بلاد الإفرنج، وعلى أحد وجهيه صورة إنسان في دائرة مكتوبة بقلمهم، وفي الوجه الآخر صورتان في دائرة مكتوبة، ولم يكن يعرف هذا الصنف قديماً مما يتعامل به الناس، وإنما حدث في القاهرة في حدود سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م حتى صار نقداً رائجاً، (المقريزي: ا لسلوك، ج٤/١: ص٣٠٥)، وقد تعاملت به مكتفي بداية القرن التاسع الهجري، أنظر النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٣٥، ص ٥٨٨.

الأشرفية[١]، والمحلق[٢] الذي راج استعماله من أواخر القرن التاسع الهجري[٣]، إلى بداية القرن العاشر الهجري.[٤] وكان مكيالها المد[٥] والمن.[٦]

٤ ـ الأوقاف وصدقات السلاطين والأمراء وغيرهم من المحسنين: وهذا المورد لانجده في اقتصاد أي دولة من الدول أو أمارة من الأمارات غير مكة والمدينة لوجود الأماكن المقدسة بهما.

---

(١) الدينار الأشرفي: ينسب إلى السلطان الملك الأشرف برسباي، (٨٢٥هـ/١٤٢١م ـ ٥٤١هـ/١٤٢٧م)، وقد ضرب سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م، محل العملة الإفرنتية، (المقريزي: ج٢/١: ص٥٣٥، وقد تعاملت به مكة حتى نهاي العصر المملوكي، أنظر العز بن فهد: بلوغ القرى، الورقات: ٥٢أ، ٨٨أ، ١٢٩ب، ٢٠١ب.

(٢) المحلق: نسبة إلى أنه أصبح له حلق، وجمعه محلقات، وهو نوع من النقود الفضية التي ضربت في مكة، وهو في اصطلاح بعض العامة الدراهم والدنانير، (النجم ابن فهد: إتحاف الورى، ج٤/ص٤٩٩، العز بن فهد: غاية المرام، ج٢/ص٥٣٩ ـ الهامش، الزهراني: أسعار المواد الغذائية بمكة، ص١١٠).

(٣) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٤/ص٤٩٩.

(٤) العز ابن فهد: بلوغ القرى، الورقات، ٥٢ب، ٦٢أ، ٧٢ب، ١٢٩ب.

(٥) المُدّ: بالضم وجمعه أمداد ومداد ومدد، وهو نوع من المكاييل التي كانت شائعة الإستعمال في الحجاز.. وقال ابن الرفعة: «المد يتركب من الرطل، ومعنى ذلك أن الرطل داخل في تقدير وزن مايتسعه حجم المد من المكيلات» (ابن الرفعة، أبي العباس نجم الدين: الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، تحقيق، محمد أحمد إسماعيل الخاروف، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، (دمشق، دار الفكر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص٥٦.

(٦) المن: وحدة من وحدات الوزن القديمة بمصر التي استخدمها اليهود ا لعبرانيون، ويختلف تقديره حسب وجوه استعماله في الدولة الإسلامية، وقد حدده الفاسي بإثنى عشر أوقية (٢,٥) رطل مصري (مبارك، علي باشا: الميزان في الأقيسة والميزان ، ص٢٨، الزهراني: أسعار المواد الغذائية بمكة، ص١١٠، الفاسي، العقد الثمين، ج١/ص٢٠٨ ـ ص٢٠٩) .

وقد مرّت مكة طوال العصر المملوكي بسنوات من الرخاء والشدة، فحينما يكون الأمن والإستقرار مستتباً فيها، بالإضافة إلى هطول الأمطار، وقدوم الهبات والصدقات من السلاطين والأمراء وغيرهم، وتأمين الطرق في البر والبحر، تنعم مكة وأهلها والحجاج بالهدوء والأمن، والرخاء وترخص الأسعار فيها. وحينما تمر مكة بسنوات من القحط والمجاعة والغلاء يكون مرد ذلك إما بسبب السيول والأوبئة، أو انقطاع الحاج ومبرات السلاطين والأمراء، وانعدام الأمن فيها من اندلاع الفتن ونهب التجار والقوافل، وزيادة المكس عن عادته.

وطبيعة البحث لاتسمح بتتبع واستطراد جميع ماذكرته المصادر من المعلومات عن تلك السنوات واستقصاء الحديث عنها، ومع ذلك فلعل من المناسب الإشارة إلى نماذج من ذلك لما لها من تأثير في الحياة الإقتصادية، انعكس أثره على الحياة العلمية والنشاط الفكري عامة.

ففي سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥م حجت من الشام عمة صاحب ماردين[١]، وكان لها محمل كبير وسبل وتصدقت بمال كثير، وانتفع بها الحاج وأهل الحرمين وأميراهما.[٢]

وفي سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م كان الرخاء كثيراً بمكة، حيث بيعت غرارة القمح بثمانين درهماً، وغرارة[٣] الشعير بخمسين درهماً، إلا أن الماء كان قليلاً ... فأغاثهم الله بمطر

---

(١) ماردين : قلعة مشهورة محصنه ، تشرف على دنيسر ، بها اسواق كثيرة وخانات ومدارس ، فتحها المسلمون في أيام الخليفة عمر بن الخطاب (ياقوت : معجم البلدان ، ج٥ /ص ٣٩، وصاحب ماردين هو الملك السعيد شمس الدين داود بن الملك المظفر فخرالدين ألبي أرسلان بن الملك السعيد شمس الدين قرا أرسلان بن أرتق الأرتقي. (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨/ص٥٨).

(٢) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٢٧.

(٣) الغرارة: مكيال لأهل الشام، يتألف من ١٢ كيلاً أو ٧٢ مداً، (القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٨١)، وقدرها المقريزي بالنسبة لأهل الحجاز «بسبع ويبات مصرية » ، (السلوك، ج٣/١:ص١٠)، وقدرها الفاسي بالنسبة لأهل مكة بأنها ٢,٥ غرارة مكية، (شفاء الغرام، ج٢/ص٤٣٤)، وجاء في المعجم الوسيط، الغرارة وعاء من الخيش يوضع فيه القمح وغيره، وهو أكبر من الجوالق وجمعها الغرائر، (المعجم الوسيط، ج٢/ص٦٧٢).

عظيم رووا منه.[1] وفي سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م «أرسل السلطان المملوكي الناصر حسن عسكراً بمكة، انصلح بهم حالها وارتفع عنها الجور وانتشر العدل بها، واسقط المكس من المأكولات، وجلبت الأقوات فرخصت فيها الأسعار».[2]

وفي سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م كان بمكة غلاء شديد، وعدمت الحبوب والتمور وغيرها من المأكولات حتى أكل بعض الناس لحم الحمير الميتة، وهلك كثير من الناس جوعاً، ونزح أكثر أهلها عنها، ثم فرَّج الله عن الناس بصدقة بعث بها الأمير يلبغا الخاصكي (ت ٧٦٨ هـ - ١٣٦٦ م)[3]، حيث جهز كثيراً من القمح وواصل إرساله ونجدته لأهل مكة، فعم النفع بها، وتعرف هذه السنة عند المكيين بسنة أم جرب.[4]

وفي سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م أرسل الأمير جركس الخليلي[5] قمحاً كثيراً لأهل الحرمين، ليعمل منه في كل يوم بمكة خمسمائة رغيف، وبالمدينة كذلك، تفرق على الفقراء وغيرهم[6]، وفي هذه السنة كانت مكة رخيصة الأسعار.[7]

---

(١) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٦٥.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣/١: ص٤٨، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٧٦ - ص٢٧٧.

(٣) من كبار دولة أستاذه السلطان الناصر حسن بن قلاوون ، وأنتهت اليه الرياسه في دولة الأشرف شعبان ولقب نظام الملك وصار له الأمر والنهي ، وكان صاحب الفضل في رد غروة الأفرنج عن الأسكندرية سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م (ابن حجر : (الدرر الكامنه ، ج ٤ /ص ٤٣٨ ، أبن تغري بردي : النجوم الزاهره ، ج١١ / ص ٣٦ - ص ٤٠ ، الدليل الشافي ، ج ٢ /ص ٩٧٣ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٢ /ص ٧٩٣) .

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص٢٠٩، شفاء الغرام، ج٢/ص٤٣٧، المقريزي: السلوك، ج٣/١: ص٩٧، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٠٢.

(٥) جركس بن عبدالله الخليلي: صاحب الخان المشهور بالقاهرة، مات قتيلاً سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م، (المقريزي: السلوك، ج٣/٢:ص٦٨٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١/ص٣٨٣، الدليل الشافي، ج١/ص٢٣٣).

(٦) المقريزي: السلوك، ج٣/٢: ص٥٣٦، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٤٨.

(٧) المقريزي: السلوك، ج٣/٢: ص٥٣٨، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٤٩.

وفي سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م أرسل الملك المؤيد صاحب مصر صدقة من القمح، وتولى تفريقها الأمير تغري برمش التركماني[١] بمكة.[٢]

ومن سنوات الكوارث، سنة ٦٥١هـ/١٢٥٤م حيث كثر الحجاج في تلك السنة، وحصل للناس في أيام الموسم عطش شديد، واشتد الغلاء بسبب قلة المياه.[٣]

وفي سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م كان بمكة فناء عظيم وبلغ عدد الموتى من أول رجب إلى السابع والعشرين منه ألف جنازة، كما نهب في تلك السنة حجاج المغرب.[٤]

ومما وقع من قحط في سنوات ٦٧٦هـ/١٢٧٧م[٥] و ٦٨٣هـ/١٢٨٤م[٦] و ٦٩٥هـ/١٢٩٥م[٧] بسبب ندرة الأمطار، فاشتد الغلاء بمكة وبلغ مبلغاً لم يسمع بمثله منذ دهر طويل.[٨]

---

(١) تغري برمش بن يوسف بن المحب التركماني القاهري، قرَّبه المؤيد وأكرمه، وكان يقوم بتوزيع الصدقات التي تصله من السلاطين، وقد قدم مكة في سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م، وأقام بها إلى أن مات، (السخاوي: الضوء اللامع، ج٣/ص٣١ ـ ص ٣٢) .

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٣٨٣، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٢١.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ص٣٠، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٧٥.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص٢١٠، شفاء الغرام، ج٢/ص٤٣٣، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٠٢.

(٥) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٠٨.

(٦) ن. م. س. ج٣/ص١١٦.

(٧) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات في مصر،(القاهرة، مؤسسة ناصر للثقافة، بدون ت)، ص٧١، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٢٨.

(٨) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص٧١.

وفي سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م استنجد أمير مكة عطيفة بالسلطان الناصر وأخبره بقحط مكة لعدم نزول الأمطار، فأرسل إليهم القمح وتصدق به فرخصت الأسعار.(١)

وفي سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م منع الجلاب(٢) من الوصول إلى مكة، وحصل في هذه السنة غلاء عظيم في أيام الحج، بسبب كثرة الحجاج الشاميين، كما حصل للحجاج في هذه السنة مشقات كثيرة من قلة الماء وغلو الأسعار، وهلك كثير من المشاة.(٣)

وفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م عمَّ الوباء جميع مدن الحجاز وقراها، ووقع غلاء شديد بمكة.(٤) وهذا الوباء كان يشمل أيضاً جميع البلدان الواقعة على البحر المتوسط، وقد أفاضت كتب التاريخ بأخباره.(٥)

وفي سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م اشتد الغلاء بمكة، فلما قدمت الرجبية(٦)، انخفضت قليلاً، ثم ارتفعت مع قدوم الحجاج، وعظمت المشقة في الرجعة إلى القاهرة من غلاء الأسعار، وحصل بالحرمين وغيرها من بلاد الحجاز في آخر السنة قحط عظيم، ومات كثير من الأشراف وغيرهم جوعاً، وأكلت الجلود.(٧)

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢/١: ص٢٣٨، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٧٦.

(٢) الجلاب: مفردها جلبة، وهي نوع من السفن الصغيرة المخيطة التي لاتستعمل في صنعها المسامير، وتستعمل في البحر الأحمر، وهي مراكب للتجارة بين عدن والحجاز، (ماهر، سعاد: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، (القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م)، ص٣٣٨، وأنظر كذلك ص١٩٠.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٤/ص٤١٦ ـ ص٤١٧، المقريزي: السلوك، ج٢/٣: ٦٦٠، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٢٧.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢/ص٤٣٦، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٣٨.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٣/٢: ص٧٥٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠/ص١٩٩.

(٦) الرجبية: المقصود بها القادمين لأداء عمرة رجب.

(٧) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٣٧.

ومن حوادث سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م وقوع الغلاء بمكة، كما حلّ بها وباء، بلغ الموتى فيه أربعين نفراً في بعض الأيام[١]، وماحصل فيها من فتنة بين الأشراف حيث انعدم الأمن ونهبت الأموال، ونهب حجاج اليمن وحجاج مصر نهباً فاحشاً.[٢]

على أن مكة لم تعرف غلاءً أفظع من الذي حصل في سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م فقد حصل بمكة قحط عظيم، وفقدت جميع المأكولات، فأكل الناس القطط والجرذان حتى انعدمت فأقبلوا على أكل بعضهم وكثر الخوف حتى امتنع الكثير من البروز إلى ظاهر مكة خشية أن يؤكل.[٣]

أما المدينة المنورة فهي أفضل من الناحية الزراعية من مكة، وتستطيع أن تؤمن أقواتها[٤]، خاصة من التمور التي تعد مورداً مهماً لأهلها، وأن تستغني عن أن تجلب من خارجها كثيراً من الضروريات، وكان أهلها يمارسون إلى جانب الزراعة التجارة، حيث يتجرون مع سكان البادية المحيطة بالمدينة، كما يتجرون مع قوافل الحجاج والتجار الذين يفدون من مكة[٥]، وهي لاتختلف عن مكة من حيث موردها المالي عن طريق إقامة الحجاج والزوار بها.

أما مصادرها الخارجية فإنها كانت تأتيهم عن طريق البحر بميناء ينبع[٦]، بالإضافة إلى ما يصلها مع حجاج مصر والشام من المنسوجات وغيرها من السلع، كما أن

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص٢١٠. شفاء الغرام، ج٢/ص٤٣٧، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٧٩.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج٦/ص٢٠٩.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤/١: ص٥٠٩.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٩٤.

(٥) ن. م. س. ج٤/ص٣٠٦.

(٦) الجاسر: مقتطفات من رحلة العياشي، (ماء الموائد)، الطبعة الأولى، (الرياض، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص٣٥.

السلاطين والأمراء لم يهملوا هذه المدينة في صدقاتهم وأعطياتهم وإسقاط المكوس والضرائب، بل ربما عملوا فيها من الخيرات أكثر مما عملوه بمكة.[(١)]

ففي سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م أوقف السلطان الملك الصالح إسماعيل على خدام المسجد النبوي ومنبر المسجد أوقافاً غير أوقاف أبيه بمصر.[(٢)]

كما قام الظاهر برقوق بإرسال القمح عدة سنين لمكافحة الغلاء والقحط، بواسطة الأميرجركس الخليلي، وتمّ تفريقها على أهل الحرمين.[(٣)]

كما جرت على يدي تغري برمش التركماني كثير من الصدقات التي عمّت الحرم المدني الشريف منها صدقة من القمح سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م وصدقة أخرى سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م.[(٤)]

وقام السلطان قايتباي أثناء قدومه للحج سنة ٨٨٤هـ/١٤٧٩م بإسقاط المكوس عن أهل المدينة وعوض أميرها ألف أردب[(٥)] من القمح، وفرق الذهب على فقرائها وفقهائها وعلمائها.[(٦)] وأوقف قرى في مصر يحمل ريعها إلى المدينة.[(٧)]

---

(١) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٨١.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢/٣: ص٦٣٣، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٦٣.

(٣) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٤٨، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٣٦٧.

(٤) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٣٨٧.

(٥) الأردب: من مكاييل المسلمين، ساد استخدامه في مصر والحجاز، وقدره ابن الرفعة بست ويبات كل ويبة أربعة أرباع، فجملته أربعة وعشرون ربعاً والربع أكثر من الصاع، (الإيضاح والتبيان، ص٧٣)..

(٦) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٣/ص٤١١، السمهودي : وفاء الوفا ،ج٢/ص٦٤٤، ص٧١٤، النهر والي: الأعلام، ص٣٣٢.

(٧) السمهودي: وفاء الوفا ، ج٢/ص٦٤٤.

ولما حج ابن السلطان الأشرف قانصوه الغوري وزوجته سنة ٩٢٠هـ/١٥١٥م تصدقا بمال عظيم وفعلا من البر والمعروف والإحسان في الحرمين الشريفين ما يجل عن الوصف.[(١)]

وكانت حال المدينة الإقتصادية عموماً أحسن من حال مكة، لقلة عدد سكانها وكثرة عيونها وآبارها، ولقربها من القرى الزراعية، فكثر محصولها من التمور، واستفادت كثيراً من عرب البادية الذين يحملون إليها السمن والعسل والألبان وغير ذلك من المأكولات.

أما معاملاتها المالية فهي كمعاملات مصر ومكة بالدنانير والدراهم، ومكيالها المن والمد وقياس قماشها بالذراع الشامي.[(٢)]

أما جدة فقد كان لها دور مهم في الحركة التجارية في العصر المملوكي، حيث كانت بوابة الحجاز للوافدين إليها من مصر وأفريقيا والمغرب وبلاد السودان.[(٣)] وكانت تتأثر كثيراً حينما تتدهور الأوضاع السياسية بمكة، فينُهب التجار والجلاب وتصادر جميع أموالهم.[(٤)]

وقد ازداد نصيب جدة من التجارة الدولية في بداية القرن التاسع الهجري، وازدادت المبالغ التي كان يجبيها الأمراء من المكوس، حتى صارت مورداً مالياً مهماً لهم.[(٥)]

---

(١) العيدروسي: النور السافر، ص٩٧ ـ ص٩٨.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٣٠٦.

(٣) مورتيل، ريتشارد: الأحوال السياسية والإقتصادية بمكة في العصر المملوكي، الطبعة الأولى، (الرياض، مطابع جامعة الملك سعود، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص٧٥.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج٧/ص١٢٣، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢١١، ص٢٦٨، ص٢٩٤، ص٣٦١.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ج٤/ص٩٥، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٤٢٠.

ويدلنا على ذلك قول ابن شاهين الظاهري: «وهي ميناء مكة المشرفة ترد إليها المراكب بالبضائع، وهي من أعظم المواني، وربما يردها في كل سنة نيف عن مائة مركب، من جملة ذلك مركب بسبعة قلوع وتؤخذ الموجبات والرسوم تحمل إلى صاحب مكة، وكان الملك الأشرف برسباي يشاركه في أخذ نصيب من ذلك، ويقال أن متحصلها مئتا ألف دينار في كل سنة، وربما يزيد وينقص».[1]

لذلك عمد المماليك إلى جعل الميناء تحت إشرافهم مباشرة، وجعلوا نظارته وظيفة سلطانية، ولتأكيد سلطان ناظر جدة ـ وضع تحت تصرفه كتيبة من جند المماليك تشد أزره في حال تعرض جدة لهجوم من قبل أشراف مكة، وقد أدى ذلك إلى ازدهار جدة، وأصبح يقصدها عدد كبير من السفن بعد أن كان النشاط التجاري وقفاً على عدن.[2] وصارت الأموال تحمل إلى مصر.[3] ويرجع هذا الإزدهار الإقتصادي إلى حسن المعاملة التي كان يلقاها التجار في جدة على عكس ما كانوا يجدونه في عدن[4]، وكذلك وقوف سلاطين المماليك في وجه ملوك الرسوليين الذين أرادوا منع وصول السفن إلى جدة، ومضاعفة الضرائب المفروضة على البضائع القادمة من عدن[5]، فقام المماليك بمنع السفن

---

(١) زبدة كشف الممالك، ص١٤.

(٢) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٦٢٠ ـ ص٦٢١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤/٢: ص٧٠٧، الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١٤، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٦٢١، وقد انتقد تلك السياسة الإقتصادية المقريزي بقوله: «فجاء للناس ما لاعهد لهم بمثله، فإن العادة لم تزل من قديم الدهر في الجاهلية والإسلام أن الملوك تحمل الأموال الجزيلة إلى مكة لتفرق في أشرافها ومجاوريها، فانعكست الحقائق، وصار المال يحمل من مكة، ويلزم أشرافها بحمله إلى القاهرة» (السلوك، ج٤/٢: ص٧٠٨).

(٤) المقريزي: السلوك، ج٤/٢: ص٦٨١، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٦٢١.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٤/٢: ص٦٨١، مورتيل: الحياة السياسية والإقتصادية في العصر المملوكي، ص١٨٢.

اليمنية من الرسو في جدة وينبع، ومصادرة البضائع القادمة من اليمن[١]، وعاملت التجار الهنود والصينيين وغيرهم أحسن معاملة.[٢]

إلا أن هذا الإزدهار لم يدم طويلاً بسبب محاولة السلطان برسباي فرض رسوم إضافية على البضائع، علاوة على ضريبة العشر[٣]، بالإضافة إلى إجبار التجار بالقدوم إلى القاهرة مع ركب الحاج المصري لتؤخذ منهم المكوس[٤]، واتخذ سياسة احتكارية في بيع السلع[٥]، مما أدى إلى اتجاه التجار مرة أخرى إلى ميناء عدن.

وفي عهد السلطان جقمق عاد الهدوء ونشطت حركة التجارة بها، خاصة حينما تولى نيابة جدة جانبك الظاهري الخاصكي[٦]، الذي طبق سياسة حاسمة تجاه التجار بمكة وجدة.[٧]

(١) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٤/ص٨٠.

(٢) فهمي: طرق التجارة الدولية، ص١٣٩.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤/٢: ص٩٢٩.

(٤) ن. م. س. ج٤/٢: ص٧٥٤ ـ ص٧٥٥، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٤/ص٤٣.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٤/٢: ص٧٩١.

(٦) هو الأمير سيف الدين جانبك بن عبدالله الظاهري الدوادار الكبير الخاصكي المعروف بنائب جدة، له كثير من المآثر بمصر والحجاز، قتل بيد الجلاب سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٢م، (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦/ص٣٢٠ ـ ص٣٢٤، السخاوي: الضوء اللامع، ج٣/ص٥٧ ـ ص٥٩).

(٧) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٤/ص٢٦٦ ـ ص٢٦٧.

ولم يكن النواب الذين تولوا أمر جدة من بعده، يتميزون بحنكة وحسن تدبير هذا النائب، مما ترتب عليه إعراض عدد كبير من تجار الهند عن السفر إلى جدة، وتوجيه نشاطهم إلى عدن.[١]

وأخيراً أدت المنازعات بين أشراف مكة للوصول إلى الأمارة إلى تخريب العمران وتدميره بجدة[٢]، بالإضافة إلى تعسف النواب في جباية العشور، والتهديد البرتغالي للتجارة الإسلامية[٣]، واكتشاف طريق الرجاء الصالح - كل ذلك أدى إلى نهاية جدة كثغر تجاري.[٤]

أما ينبع فهي الميناء الثاني بعد جدة على البحر الأحمر، والمحطة البرية والبحرية لحجاج مصر والشام، خصوصاً أولئك الذين يريدون مسجد رسول الله ﷺ قبل أو بعد حجهم إلى البيت الحرام بمكة، فصارت سوقاً مهماً لبيع وشراء مختلف السلع، حتى بلغ من ازدهارها أن قدِّرت عائداتها من التجارة بثلاثين ألف دينار سنوياً.[٥]

ويعزى انتعاش التجارة في ينبع إلى انعدام الأمن وسوء المعاملة التي كان يلقاها أصحاب السفن التجارية عند رسوهم بجدة الأمر الذي دعاهم إلى البحث عن ميناء آخر، وقد وجدوا في ينبع ظالتهم المنشودة[٦]، غير أن ذلك لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما أن احتلت جدة مكانتها الأولى.

---

(١) مورتيل: الحياة السياسية والإقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ص١٨٩.

(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ١٢٩ب - ورقة ١٣٠أ.

(٣) مورتيل: الحياة السياسية والإقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ص١٩٢.

(٤) خفاجي: موقف مصر من الحجاز، ص١٢٧.

(٥) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١٦.

(٦) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٨٩، ص٤٠١.

إلا أنها كذلك لم تنج من الفتن والقلاقل التي أحدثت مجاعات وويلات وخراباً عطل هذا الميناء، وقطع موارده التجارية، كما لاحظنا في الجانب السياسي عنها.

أما الطائف فلاشك أن تنوع المناخ وخصوبة الأرض بها، أدى إلى انتشار الزراعة وتنوع المحاصيل الزراعية في هذه المدينة، وبالتالي أصبحت هذه الحرفة من الحرف التي تميّزت بها الطائف على سائر مدن الحجاز.

ويعزو ابن جبير السبب في عمران الطائف وكثرة مزارعها إلى هجرة المغاربة ذوي البصارة والفلاحة والزراعة، فأحدثوا فيها بساتين ومزارع، فكانوا أحد الأسباب في خصب هذه الجهات[١]، وقد أشار ياقوت بكل وضوح إلى امتهان سكان الطائف حرفة أخرى إلى جانب الزراعة، وهي الدباغة، حيث قال: «والوادي الذي بين طائف ثقيف ووهط[٢] تجري فيه مياه المدابغ التي يدبغ فيها الأديم، ويصرع الطيور رائحتها إذا مرت بها»[٣].

وقد أوردت كثير من المصادر القديمة والمعاصرة لفترة البحث[٤]، الأهمية الإقتصادية لهذه المدينة بالنسبة إلى مكة، حيث كانت الممول الرئيسي الأول لمكة في الفواكه والخضروات والحيوانات ومنتجاتها والعسل وغيرها من السلع، ولكن انقطاع الأمطار عنها في بعض السنين، هذا بالإضافة إلى انتشار الأوبئة والأمراض بها كان له انعكاسه وتأثيره في غلاء الأسعار بمكة في تلك السنين.[٥]

كما ساعد على النشاط الإقتصادي بهذه المدينة، اتخاذ كثير من أهالي مكة من المجاورين والعلماء والأعيان وأصحاب الأموال ـ الطائف ـ مصيفاً لهم، وقاموا بشراء كثير من الأراضي والبساتين لتوقف على الأعمال الخيرية بمكة.

---

(١) الرحلة، ص١١١، هذا وإن كانت الطائف معروفة منذ القدم بانتاجها الزراعي الوفير قبل قدوم المغاربة.

(٢) وَهْط: بفتح أوله وسكون ثانيه، وطاء مهملة، المكان المطمئن المستوي ينبت العضاه والسَّمر والطلح، وهو قرية بالطائف على ثلاثة أميال من وج، (ياقوت: معجم البلدان، ج٥/ص٣٨٦).

(٣) معجم البلدان، ج٤/ص٩.

(٤) الأصطخري: المسالك والممالك، ص٢٧٤، ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٩، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٩، ابن جبير: الرحلة ص١٢٢، ياقوت، معجم البلدان، ج٤/ص٨ ـ ص٩، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٦٠.

(٥) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٩٠، ص١٠٢، ص١٠٨.

الفهرس

الموضوع **صفحة**

الفهرس

الموضوع	صفحة